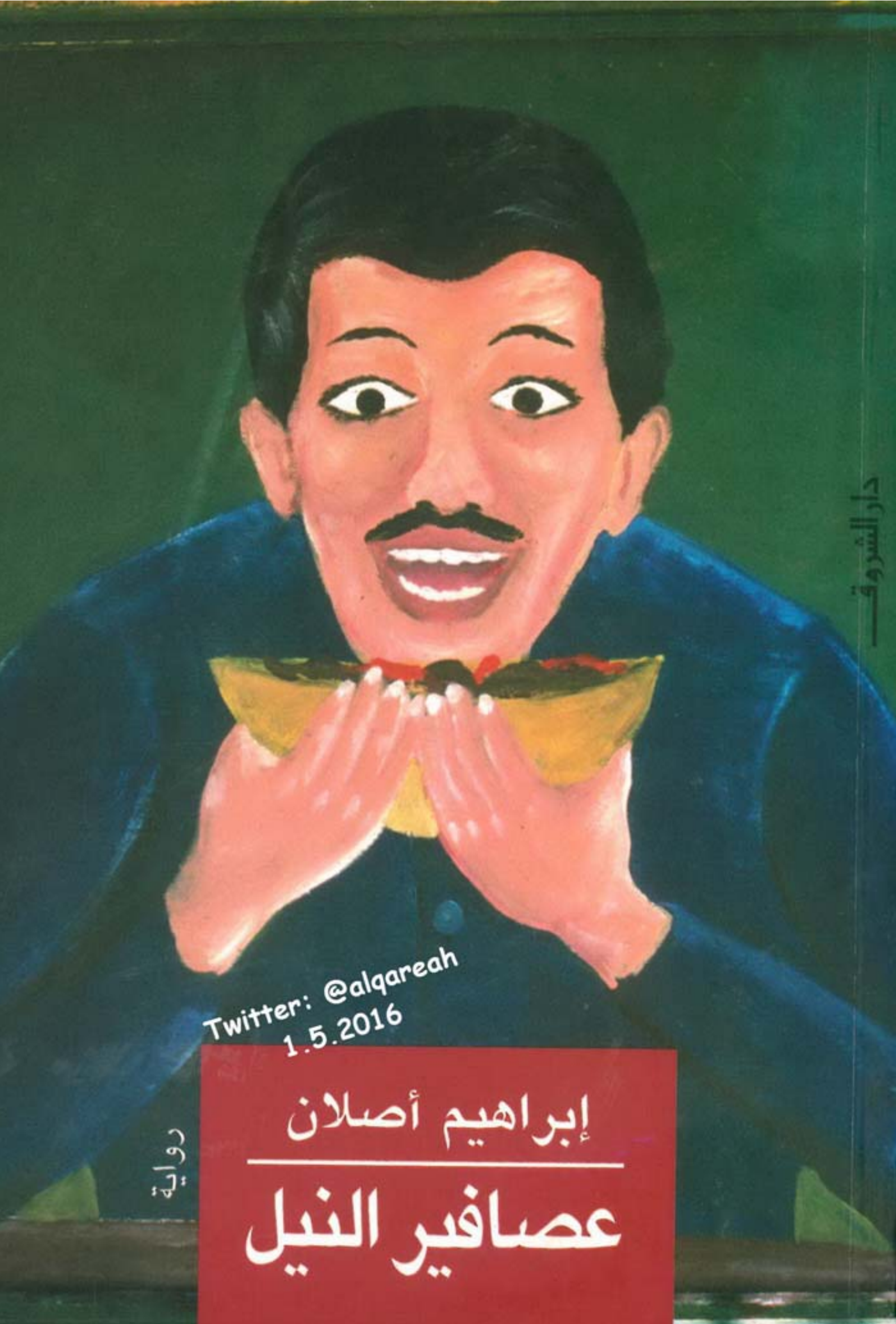


دار الشروق
Twitter: @alqareah
1.5.2016
إبراهيم أصلان
رواية
عصافير النيل

إبراهيم أصلان

عصافير النيل

دار الشروق

طبعة الشروق الأولى
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - مدينة نصر
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

إلى الولدين:

«هشام» و«شادي»

تصميم الغلاف:

محيي الدين اللباد

مُهدى إلى الكاتب

١

انتبهت الجدة من غفوتها .

تركت مكانها عند الزير .

وتلمست الجدار حافية حتى البوابة .

وقفت تدارى جسمها فى صدغ الباب ، وتطل برأسها .

تتفرج على ابنها عبد الرحيم ، الذى خرج محمولاً إلى العربة المفتوحة .

ظلت تبتسم وتكلم نفسها حتى انفضَّت الزحمة .

لمحها الحاج محمود الفحّام ، واتجه إليها :

«ادخلى إنت يا خالة هانم . إن شاء الله يبقى عال» .

«إنت مين يا خويا؟»

«أنا الحاج محمود» .

«يا صلاة النبى . ابن دولت؟»

«لأ ، أنا الحاج محمود الفحّام» .

«بتاع الفحم؟»

«أيوه» .

«وجيت امتى يا خويا؟»

«أنا هنا من بدرى» .

«الحمد لله على السلامة . اتفضل» .

«تعيشى» .

«ما يصحش» .

«معلش . ادخلى إنت علشان الزحمة» .

«تسلم من كل ردى . هم شايلين الواد عبد الرحيم ورايحين فين؟» .

«أنا رايح أشوفه وارجع أطمنك» .

قالت الجدة :

«يخيبك يا عبد الرحيم . لازم الانتخابات رجعت تانى» .

وسألت :

«إنت يا خويا عاوز تروح لهم؟»

«أيوه . حا غير هدومى وأحصلهم» .

«حتلاقيهم حدا الدكاكين ، فى أول البلد ، ما هو المنشاوى باشا نجح» .

واستدار الحاج إلى الناحية الأخرى وقال :

«لا حول ولا قوة إلا بالله» .

«تشرف يا خويا وتآنس . أهلا وسهلاً» .

واستدارت بجرمها الصغير:

«بنت يا دلال. هئ هئ هئ».

ودخلت.

كانت أمينة فى المطبخ.

والأستاذ عبد الله بن عثمان قاعد فى الصالة، يحتسى القهوة ويدخن.

كان يتفرج على التليفزيون، ويلمح الولد الكبير، عبر باب حجرة النوم الموارب، وهو يجرّب هدومه كلها أمام المرآة، أما الولد الصغير، الذى استلقى بالعرض داخل المقعد الكبير، دماغه على مسند، وساقاه متدليتان من فوق المسند الآخر، فقد كان يتابع الشاشة، ويقاوم النعاس.

فى ذلك الوقت كانت المذيعة الشابة تقف وسط مجموعة من التلاميذ الصغار عند سفح الأهرام، تسألهم عن عددها، وأسماء من بنوها، والأولاد يرفعون أصابعهم ويجيبون: خوفو. خفرع. منقرع. بينما المدرسة المرافقة، تظهر على الشاشة أحيانًا، وتختفى. وعندما قالت المذيعة:

«طيِّب، مين يعرف الفراعنة بنوا الأهرامات ليه؟»

لم يجب أحد.

ثم رفع أحد الأولاد إصبعه.

«قول يا حبيبى».

وقربت الميكرفون من فمه. قال الولد:

«هم بنوا الأهرامات، علشان يدفنوا فيها حضرة الناظر».

«يا خبر».

وضحكوا، المذيعة، والولد النعسان.

الأستاذ عبد الله أيضًا ضحك، وأطفأ سيجارته.

فكر أن يقوم ويخبر أمينة بما قاله الولد، لكن صوت الكنارى، ارتفع مدويا داخل الصالة.

كان القادم هو سلامة، الشقيق الأوسط للأستاذ عبد الله.

ولأنه جاء على غفلة توقع الأستاذ أن يسمع ما لا يدعو إلى الراحة.

تأكدت شكوكه عندما رأى سلامة يجلس وهو يباعد ما بين ساقيه، ويتكئ بمرفقيه على ركبتيه، ويتطلع إليه وهو صامت.

لم يشأ، من ناحيته أن يتساءل، ولكنه فضَّل أن يكتفى بالابتسام ويؤجل الكلام، مراعيا أن لا تكون عملية التأجيل أطول من اللازم، لكى يبدو موقفه طبيعيًا، ولكى يجبر سلامة على الحديث دون أن يسأله، وما ذلك إلا لأن الأستاذ لم تكن تعجبه حالة الجدية التى يصطنعها شقيقه كلما جاءه بواحد من أخباره السوداء غالبا، والتى تخص العائلة. كان يضايقه أكثر أن سلامة يدارى ما يشبه الابتسام وهو يحدق إليه، أو يتشاغل بالنظر إلى الثلاجة الموضوعة فى ركن الصالة، كما يفعل الآن، كأنه لم ير هذه الثلاجة عشرات المرات من قبل، كأنه يريد أن يخيفه، أو على الأقل يقلقه، فى الوقت الذى كان يجب عليه، هو بالذات، معرفة أن شقيقه الكبير، وقد

تلقى من الأخبار أسوأها، لم يعد من السهل إخافته، لذلك لم يكن الأستاذ راضيًا. وكاد الصمت بينهما أن يكون سخيفا لولا أن أمينة بانت من المطبخ وهى تقول:

إزيك يا أبو أمل، وازاى سامية؟

اعتدل سلامة، وفى أسى حقيقى، قال:

«بقى لنا يومين ماغمناش يا أم عصام».

«حد تعبان من العيال وإلا إيه؟»

«يا ريت».

وأخرج علبة سجائره، وانشغل.

وبما أن الموضوع فتح فعلاً، فإن الأستاذ تساءل، بهدوء:

«إيه الحكاية؟»

«ستك هانم».

«إيه؟ ماتت هى كمان؟»

«يا ريت».

«يا ريت إزاى؟»

«علشان اللى بيموت، بنعرف طريقه، لكن دى اختفت».

«اختفت إزاى يعنى؟»

«يعنى فص ملح ودابت».

«ستك هانم؟»

سلامة هز برأسه موافقا.

«من امتى الكلام ده؟»

«دلال بتقول من يومين تلاتة».

ونفخ دخان سيجارته وقال إنهم، من ناحيتهم، لم يتركوا مكانا لم يبحثوا فيه، فضل الله عثمان بيتا بيتا، الحوارى التى حول فضل الله عثمان، الأقسام، المستشفيات، حتى المشرحة: «دورنا فيها».

وأمينة قالت:

«يا ساتر يارب».

«الحاج محمود الفحّام كان فى المشرحة من ساعتين».

والأستاذ عبد الله استغرب جداً:

«راحت فين يعنى؟»

«أنا باقول جايز، والله أعلم، تكون راحت البلد».

«أى بلد؟ ولمين؟ دى بقى لها أكتر من تلاتين سنة ما سافرتش».

وفكر قليلاً، وأضاف:

«وبعدين تسافر ازاى؟ دى تجاوزت التسعين».

سلامة قال:

«ستك عندهاماية وأربعين سنة النهار ده».

«إنت بتقول إيه؟»

«باقول لازم تسافر»

«أسافر فين؟»

«البلد» .

هكذا قال سلامة وهو يغير من نبرة صوته، ويوضح أن سته لو كانت موجودة فى البلد الآن، ولم يسأل عنها أحد، فسيقولون إن أولاد ابنتها تركوها فى هذه السن تسافر وحدها :

«وتبقى فضيحة» .

ثم إن عبد الله هو الوحيد بينهم الذى عرف البلد وهو كبير :

«يبقى لازم هو اللى يسافر، صح؟»

أمينة قالت :

«صح» .

والأستاذ قال :

«أسافر أقول يا مين هناك؟»

«قول يا أى حد . المهم نبقى سألنا» .

وباعد ذراعيه على جانبى المسند :

«فين الشاى يا أم عصام؟»

«الشاى على النار يا أبو أمل» .

انتهى الأستاذ من حلاقة لحيته النابتة البيضاء.

ارتدى قميصا من قمصانه المكوية، ومسح الحذاء المركون.

ووقف أمام المرآة، يرتب شعره الذى شابه البياض.

وفى الطريق، كان إحساسه، الذى نادراً ما خانه، يقول له إنه سوف يجد زوجة خاله دلال واقفة فى فتحة الباب، بوجهها الضاحك، تخبره أنهم عثروا عليها، وأنه سوف يتقدم إلى حجرتها الصغيرة المعتمة، فى نهاية الطرقة الطويلة، يطل عليها، ويراها على الكليم بثوبها الأسود، يضحك معها ويخبرها كيف يعتقد سلامة أنها تاهت، ثم يجلس مع دلال فى الحجرة الكبيرة، يشرب الشاى، ويعود.

اتخذ الأستاذ طريقه إذن، ودخل فضل الله عثمان من نهايته المفتوحة على أرض السوق الكبيرة الخالية التى تقع شمال النيل. كلما جاء إلى فضل الله عثمان شعر بالحرج من كبر سنه، فكر فى ذلك بينما هو يعبر إلى جوار عربة محمد أفندى الرشيدى المتربة، تحت شباك شقتهم القديمة المقفل. وكان فضل الله عثمان يوشك الآن أن ينتهى، عند قطر الندى الممتد من النيل شرقًا وحتى غرب المدينة، حيث يقع بيت خاله، ومن مكانه، كان فى وسعه أن يرى المدخل البعيد، وعندما اقترب أكثر، أدرك أنه كان مفتوحا.

كانت دلال تجلس على الحصيرة البلاستك المفروشة أسفل المدخل المفتوح.

ما إن لمحته حتى انفجرت باكية.

اتجه الأستاذ إلى الحجرة الكبيرة وقد بدأ الهم يركبه فعلاً، وجلس راغبًا

فى سماع كل شىء بالتفصيل. كانت الحجرة تسع سريراً عريضًا، وطاقما أسيوطيا، وكنبة بلدية تحت النافذة الطويلة. وعلى الجدار المطلى بالجير الأخضر الباهت، علقت صورة بالأبيض والأسود فى إطار ذهبى قديم. لكن دلال لم يكن لديها الكثير لكى تضيفه إلى كلام سلامة: لقد لاحظت يوم السبت أنها لم تسمع أية حركة داخل الدار، وعندما اتجهت إلى حجرتها لم تكن هناك، ولما لقيت أن المداس اختفى، تأكدت أنها خرجت.

«مداس إيه؟».

«اللى كانت بتلبسه لما تيجى خارجه».

«هى كانت بتخرج؟»

«أبدا».

«أمّال إيه؟».

دلال قالت ما معناه، أن الجدة هانم، من يوم ما ماتت ابنتها نرجس، أم الأستاذ عبد الله، وهى تبحث عن مداسها لكى تلبسه وتروح لها، وبعدما بدأت هذه الحكاية تغيب عن بالها، مات ابنها عبد الرحيم، وهى رجعت مرة ثانية تبحث عن المداس لكى تلبسه وتروح لهم، ولذلك خبأته منها وراء الزير.

«تروح لهم فين؟».

«ربنا وحده اللى يعلم».

«يمكن راحت لهم القرافة؟».

«لأ . دى هى بيتهيأ لها إنهم عايشين» .

«عايشين؟»

«أمال إيه»

والتفتت إلى الولد عبد الله الصغير الذى يجلس فى ركن الفراش وقد طوى ساقيه :

«قوم يا واد هات باكو شاى»

نظر الأستاذ بدوره إلى الولد الذى يحمل اسمه ، والذى كان من عادته أن يتجاهله ، ثم أشعل سيجارة وقال :

«فى رأيك أنت كده ، تكون راحت فين؟»

«مفيش قدامنا غير البلد»

«هى تعرف تسافر؟»

«يمكن سألت وحدّ دلها»

قال :

«حاجة غريبة جداً» .

«لازم تسافر بكره يا أستاذ عبد الله»

«ربنا يسهل»

«اعمل معروف يا أبو عصام» .

وقامت تعمل الشاى .

وقام هو واقفا .

اقترب من الإطار الذهبى القديم . .

راح يتأمل الصورة التى جلست فى مقدمتها أمه نرجس، ما زالت بصحتها، وإلى جوارها الجدة هانم، ضئيلة فى طرحتها السوداء، وخلفهما، كان خاله عبد الرحيم، ممتلئا وشابّا، بشعره الطويل المفروق. وبينما هو واقف انقطع النور، وجاءت دلال تحمل لمبة الجاز الكبيرة. وضعتها على قاعدة النافذة الطويلة، التى فتح نصفها العلوى على فضل الله عثمان، المعتم.



٢

مـرّة، النور انقطع فـجـأة على نرجس وهى قـاعـدة تتـفـرج على التليفزيون.

نرجس ارتعبت لأنَّها لا تخاف من شىء فى الدنيا مثل العتمة. ومشت خطوة واحدة فى انتظار البهى عثمان، الذى كان عند جابر البقّال.

وعندما تبينت حفيف الجلباب عند الباب قالت:

«أبو عبده؟»

والبهى قال:

«أيوه».

ودخل المطبخ.

نرجس وقفت حتى سمعت يده وهى تنكش فى علبة الكبريت، ورأت النور الخفيف وهو يأتى من الطرقة، وراقبت خيال الفوطة المعلقة فى المسمار وهو يكبر على الحصيرة، ثم ينسحب إلى الجدار ويصغر، أمام لمبة الجاز التى جاء يحملها بين يديه الاثنتين.

البهى رأى نرجس وهى على هذه الحال وابتسم.

وضع اللمبة على التليفزيون ومسح زجاجها الدافئ بكفيه وعلاّها،

وسألها عن علبة الكبريت التى طلب منها أن تحتفظ بها وتنور لنفسها إذا النور انقطع . وهى رجعت مكانها وقعدت على الكنبة وقالت إنها غلبت من عيال ابنتها إحسان، الذين لا يتركون شيئا فى مكانه أبداً .

البهى عثمان سمعها وأخرج ورقة أسبرين من جيب الجلباب وهو واقف .

وضع القرصين على لسانه وتناول القلة من جنب التليفزيون وأخذ شربة ماء وابتلعهما، وقعد على الكنبة الأخرى ومد يده الممسكة بالمسبحة على ركبته المثنية، وركن الشمال على المسند وأخبرها أن أم حسين البقالة أعطته قبل الظهر ربع جنيه قديما، وأنه أعاده إلى ابنها جابر، أخذه وأعطاه ربع جنيه آخر، ولمس جانب فمه بأطراف أصابعه .

ونرجس سألته عما إذا كان ضرسه لا يزال يؤلمه . والبهى قال :

«آه» .

«طيب يا خويا اخلعه» .

«يا ستى» .

«ما دام بيوجعك» .

«أنا لسه ح اخلع واعمل يا أم عبده؟»

نرجس قالت إن كل الناس تفعل ذلك فى مستشفى الموظفين، وإن وجع ساعة ولا كل ساعة :

«ولا أنت يعنى عليك ذنب، تفضل طول عمرك وأنت تعبان منه؟»

«لا طول عمرى ولا حاجة . آهو شويه كده، لغاية الواحد ما يروح لحاله» .

نرجس سكتت وفكرت فى أسنانها التى كانت تعوم وتقع فى فمها دون أى وجع، وقالت :

«أنا اللى أسنانى خابت لوحدها».

وإنها كانت ترميها من الشباك :

«سليمة وزى الفل . النور اتأخر».

«زمانه جاى».

«يا ترى مقطوع عند الجامع؟»

«فضل الله عثمان كله عتمة».

وقال إن العيال لم يظهروا . لم ير أحداً منهم . ولكن نرجس قالت إن الولد عبد الله الصغير كان هنا، وسلامة، زمانه ساحب مراته وجاى .

«الكلام ده امتى؟»

«وأنت نايم».

«وإحسان؟»

«عيالها كانوا هنا . نرجس الصغيرة، والواد وليد».

وأخبرته أنه قعد وقال :

«هاتى شلن يا ستى».

أخذه وهبد الباب وراءه وخرج .

أبو عبده قال إن هذا الولد، بلون شعره وعينيه، يذكره بالشيخ راشد الذى كان فى البلد . أبو الشهيد عبد السميع الله يرحمه :

«فاكراه يا نرجس؟»

نرجس عدلت جسمها على الكنبة وقالت:

«فاكراه قوى».

ووصفت له جلبابه المقطوع وطاقيته المدورة، وكيف كانت تجرى وراءه من بعيد، وهى بنت، مع أولاد يحيى، من عند دار الطناحى، إلى سيدى على الشنبابى غرب البلد:

«ده كان كافر يا أبو عبده».

أبو عبده هز دماغه وقال:

«سبحان الله».

وأخبرها أن راشد بعد أن تاب، كان يقف أمام باب سيدى على الشنبابى ويهمس فى خرم المفتاح ويقول:

«واد يا على، سلام عليكم، افتح يا واد. أنا راشد».

وكان باب الجامع المقفل بترابيس النحاس من الداخل يفتح على الناحيتين، وراشد يدخل ينام والباب يقفل من ورائه.

«ده من عيلة اللبودى يا أبو عبده».

«عارفه، وعارف ولاد عمه كلهم. أرضهم كانت على المصرف البرانى».

«شوف الدنيا، يا ترى راشد مات يا أبو عبده؟».

«تلاقيه مات، من بدرى».

نرجس مصمصت بفهما الخالى من الأسنان وقالت :

«يا دى الخيبة على حكاية النور دى يا ولاد» .

وصمتت قليلاً :

«يا ريتك يا أبو عبده لما أموت ، توصل لى سلك بلمبة فى التربة» .

«إزاى الكلام ده؟»

«تعرف ، ولو أسبوع واحد» .

البهى عثمان كان أول مرة يسمع فيها كلاما بهذا الشكل .

وقال :

«دى تضرب يا وليه»

نرجس قالت :

«أبداً . والنبى ما يجرى لها حاجة» .

البهى عثمان سكت وتهيأ له أن اللمبة لن تضرب . وفكر بينه وبين نفسه : «صحيح ، إيه اللى يخليها تضرب؟» لكن عقله راح ناحية الملكين وهل يصح أن يكون الحساب فى نور لمبة الكهرباء أو لا يصح . واستغفر ربنا وهرش رجله الشمال ، وبدا له أن الموضوع غريب فى نوعه ، وغادر الكنبة وأتى بعدة الشاى ، وابور السبرتو ، والبراد الأزرق ، والأكواب .

نرجس رجعت تقول إنه يستطيع أن يأخذ وصلة سلك من عبد الخالق الحانوتى ، ويشترى لمبة ولو خمسين شمعة ، مثل التى فى الحمام ، ودواية : «يعنى عمرها ما تكلف خمسين قرش ، ولا يمكن أربعين . تعرف ، أسبوع واحد ، لغاية ما آخد على الضلمة» .

أبو عبده وضع السكر فى الأكواب وهو يقول فى سره :

«وصلة إيه يا خويا وسلك إيه؟» وفكر أن السلك بعد تركيبه فى المقبرة لابد يردم عليه ، وبعد أن يردم عليه يخرجه من تحت الأرض فى الناحية الثانية من الطريق ، ويصله بالفيشة عند عبد الخالق الحانوتى . وطبعًا ممكن يتعرى من الرطوبة وأى واحد يدوس عليه ويتكهرب : «ده يموت ، وتبقى دوشه» .

وأشعل وابور السبرتو . وضع عليه البراد الأزرق ، ومد لها يده بعلبة الكبريت .

طلب منها أن لا تضيعها هذه المرة .

وهى أخذتها منه ، خبأتها تحت المسند وهى تقول بأسى ، إن أولاد إحسان شياطين ، لا يتركون شيئا من مكانه ، أبدًا .

فوجئت نرجس بحركة فى العتمة .

خارج باب الشقة المفتوح .

قالت وهى تلم رجليها :

«مين؟»

قال شقيقها :

«منورين» .

وقال البهى عثمان :

«أنت فين من بدرى؟»

«فى الدار» .

وجلس على حافة الكنبة ويداه فى جيبى جلبابه .

قالت نرجس :

«سايب أمك فى العتمة وجاى يا عبد الرحيم؟»

ضحك :

«هى دريانة إن كانت عتمة ولا نور؟»

ظل النور مقطوعا حتى انتهت صلاة الظهر ، ثانى يوم ، فى جامع السنية القريب ، والبهى عثمان تناول الشبشب من الدولاب المنصوب مثل المكتبة فى مدخل الجامع ، ومشى بقامته القصيرة فى الشمس الحامية حتى وصل إلى أم حسين البقالة ، ودخل من باب البيت ، وراح يصعد الدرجات القليلة وهو يعرى ساقيه النظيفتين ويحمد ربنا أن الطوبة وقعت على أم حسين ولم تقع عليه .

عندما اقترب من باب الشقة الموارب ، لمح محمد أفندى الرشيدى فى الناحية الأخرى من الحوش . ولما لاحظ أنه طويل وهو لابس الجلباب المخطط على أول درجة من السلم الداخلى ، تصرف بسرعة ، بحيث ترك ذيل الجلباب ينزل على قدميه ، ومد يده بهدوء لكى يدفع الباب ويدخل من سكات ، لكن محمد أفندى الرشيدى أحس به وقال :

«إزيك يا سى البهى؟»

وأمسك ساعة الجيب وقربها من عينه اليسرى وهو واقف، ثم رفع وجهه، بأنفه الكبير، ونزل درجة السلم وجاء.

وبعدما عدل السلسلة المشبوكة فى عروة الزرار، وتركها مدلاة على صدره:

«عامل إيه دلوقت يا أبو عبد الله؟»

«نحمده يا أبو حنان».

أبو حنان سمعه وظل ينظر إليه، ثم وضع يده على كتفه وأخذه نحو شباك المنور المفتوح، وسأله بصوت خفيف عن هذا الكلام الذى سمعته أم حنان من أم عبد الله:

«أنت صحيح طلعت على المعاش؟»

البهى عثمان سند كتفه جنب قاعدة الشباك، وشم رائحة الرطوبة والفراخ، وابتسم كمن يريد الكلام، وسكت.

وأبو حنان قال:

«الله. إذن الكلام صحيح؟»

«هو صحيح. بس أنا تقدمت بشكوى»..

أبو حنان بهت قليلاً، ومال برأسه إلى الأمام:

«قدمتها لمين؟»

«للمسئولين».

«إزاى الكلام ده؟»

البهى عثمان خلع رجله من فردة الشبشب وثناها تحت الجلباب، أخذ يحك باطن ساقه العارية بإصبع قدمه الكبيرة وهو يقول إن الموضوع حدث فيه خطأ، وإن الحكومة أخرجته على سن الستين بدلاً من الخامسة والستين:

«أصل أنا معيّن على الكادر الفنى».

«الكادر الفنى؟»

«أمال أنا باصرف بدل طبيعة عمل ليه؟»

«بتصرف كام؟»

«عشرين فى المية».

«على الشامل؟»

«لأ. على الأساسى».

أبو حنان استغرب وقال:

«إزاى الكلام ده؟»

والبهى عثمان شعر بالارتباك حين وجده رجع وقال: «إزاى الكلام ده؟» لثانى مرة، وبعد فترة بسيطة من المرة الأولى، ولبس الشبشب وأراد أن ينصرف لأنه قدر أن يحافظ على طهارة وضوئه منذ صلى الفجر حاضراً، وهو يريد الآن أن يذهب إلى المرحاض.

وبدأ يبعد عن شباك المنور ويقرب من باب الشقة.

ومحمد أفندى الرشيدى لحقه وقال :

«لكن ده شىء غريب يا أبو عبدالله» .

«يا سيدى» .

«طيب وبعدين؟»

«ما أنا قلت لك يا أبو حنان» .

«أنا عارف إنك قلت لى ، لكن ده لا يمنع أنه موضوع خطير» .

«خطير إزاى؟»

«زى ما باقول لك كده» .

«لكن دى غلطة» .

«أنت متأكد؟»

البهى عثمان قال : «أيوه» لأنهم من حوالى سنة أخذوا منه الموتوسيكل وسلموه دفتر الحضور والانصراف واعتبروه من الكادر الكتابى : «ما تعرفش إزاى نسيوا حكاية الموتوسيكل دى خالص» .

«أخذوه إزاى؟ ده عهده» .

«هو إيه؟» .

«الموتوسيكل» .

«القومسيون» .

«القومسيون الطبى؟»

«آه» .

«إزاى الكلام ده؟»

البهى لما سمع هذه الجملة لثالث مرة، وجهه المدور ازداد احمراراً من كثرة الضيق، وقال:

«يا سيدى هو اللى كتبه».

«يعنى تقرير رسمى؟»

«آهى ورقة كده».

«الورقة دى، كتب فيه إيه؟»

البهى عثمان تنهد وقال:

«كتب إنى لازم أسلمه».

«تسلم إيه؟»

«الموتوسيكل يا أخى».

«أيوه أيوه».

وفكر وقال:

«طيب. حيث إن الموضوع كده. إيه رأيك بقى فى مشروعنا؟»

«أىّ مشروع؟»

«مشروعنا بتاع زمان يا أبو عبده. الدكان».

«دكان إيه؟»

«دكان عمك مجاهد. بتاع الفول».

«ماله؟»

«خلاص. الراجل انتهى».

«لا حول ولا قوة إلا بالله».

محمد أفندى الرشيدى قال إن ذلك ليس هو المهم. المهم الآن هو الدكان:

«لازم ناخده».

«ناخده إزاى؟».

«زى أى حد يا أخى».

وطلب منه أن يلاحظ أنه الآن على المعاش، يعنى لا شغلة ولا مشغلة، ممكن يقوم من النوم، يصلى الفجر حاضراً ويفتح الدكان، ويظل جالسا فيه حتى يعود هو من العمل:

«أصلى العصر وآكل لقمة وأستلم منك. مش عيب أبدا».

«والفلوس؟»

«أى فلوس؟»

«اللى حانشترى بيها البضاعة؟»

محمد أفندى الرشيدى قال إنها مبالغ لا تذكر. وإنه لو فكر معه سوف يجد أن المطلوب لن يزيد على صفيحة جير يدهنون بها الواجهة والجدران، ورفين من خشب أو ثلاثة، وكمية من البضاعة فى الحدود المعقولة. بعد ذلك، كلها سنة ويخرج هو الآخر على المعاش ويعمل معه فى وردية واحدة. لأن التجارة سوف تكون اتسعت.

والبهى عثمان قال بطريقة لا تخلو من اهتمام:

«على العموم الأعمال التجارية مربحة».

«جداً. وبعدين خد عندك»، وبدأ يعد على أصابع يده وهو يسأل ويجاوب: حجم الدكان؟ مناسب. المكان؟ جميل. المشوار؟ خطوتين. الإيجار؟ ملاليم:

«إيه تانى يا أبو عبد الله؟»

أبو عبد الله رأى الأصابع التى كان أبو حنان يعد عليها وهى تنثنى إصبعا وراء الآخر، ورفع مقدمة دماغه الخالية من الشعر، ونظر فى أنف محمد أفندى الرشيدى، الذى وضع يده على كتفه وعاد به إلى مكانه عند باب الشقة الموارب وهو يطلب منه أن يتوكل على الله، ونبهه إلى أن أهم شىء الآن هو عدم الكلام فى هذا الموضوع أمام أى أحد، خصوصا أم عبد الله. وأكدّ:

«أبو عبد الله؟»

«عيب يابو حنان».

«طيّب سلام عليكم».

ورفع ذيل الجلباب، وبدأ ينزل السلم.

«عليكم السلام ورحمة الله».

وفتح الباب ونظر إلى نرجس التى كانت قاعدة تتفرج من الشباك ويدها على خدها.

اتجه إلى الحجرة الداخلية وقلع الجلباب ورماه على السرير، واقترب من

سترته الحكومية المعلقة فى مقبض الشباك. وضع يده فى الجيب الخارجى وأخرج علب السجاير ومشط الكبريت، وشب على أصابع قدميه ورأى الحاج محمود الفحام وهو يجلس على الدكة فى هذه الناحية من فضل الله عثمان، والعم مجاهد وهو نعسان جنب قدرة الفول الكبيرة على عتبة الدكان، واتجه مسرعًا إلى المرحاض وهو يشعل السيجارة.

أغلق الباب على نفسه جيدا، ورفع الفانلة حتى صدره وأنزل السروال، وقعد يقضى حاجته ويدخن، ويرى خياله فى المياه الخفيفة على البلاط ويلعب فيها بعود الكبريت، ولما ارتاح، مال ورمى العود فى الفتحة المدورة، وهز دماغه وقال:

«الله يخرب عقلك يا أبو حنان».

أثناء صلاة العصر، أقبل عليه الحاج محمود الفحام من آخر الجامع، وأخبره أنَّ فتحى عماد المحامى، والمرشح عن الدائرة لعضوية مجلس الشعب، سوف يلتقى بالناخبين فى أرض السوق، بعد صلاة العشاء مباشرة، واقترح عليه أن يقدم له صورة من الشكوى.

البهى عثمان فوجىء بأن الحاج محمود على علم بالموضوع، وتطلع إليه صامتا، ثم قال:

« لا يا راجل؟»

«صدقنى يا أبو عبد الله، ده مرشح الحكومة».

كان يتكلم بصوته المبحوح وهو واقف بقامته القصيرة الممتلئة، وجلبابه البلدى المفحّم، وقد انحدرت طاقيته الصوفية عن شعره القصيرة الشايب. والبهى عثمان أسرع بالابتعاد عن فضل الله عثمان. وبعد صلاة العشاء، طوى صورة الشكوى ووضعها فى مظروف بريد جوى ملون دسه فى جيب سترته الداخلى، وغادر فضل الله عثمان يرافقه كل من الحاج محمود الفحام، وعبد الرحيم، ومحمد أفندى الرشيدى. وظل طول الطريق يسير متخلفا عنهم بخطوة أو خطوتين وهو يبتسم فى نوع من الحرج، وركل طوبة بقدمه اليمنى، مرة، وكاد أن يقع.

عندما وصلوا إلى أرض السوق، وجدوا المقاعد مرصوصة على شكل دائرة كبيرة تتوسطها منضدة خالية عليها مفرش، وحولها أربعة مقاعد فى انتظار المرشح ومعاونيه. أسرع محمد أفندى الرشيدى يدفعهم للجلوس فى الصف الأول على مقربة من المنضدة. وكان المعلم صبحى يقف فى الخارج وعينه تتابع الطريق فى الانتظار. أما القهوجى فقد كان فى حالة من الحماس الملحوظ وهو يضع أمامهم أكواب الكركديه الساخن.

كانت أغلب المقاعد ما زالت خالية.

وبدا البهى عثمان محرجًا وهو يشرب الكركديه.

لكن باله انشغل فجأة، ومال على الحاج محمود الفحّام، وهمس فى أذنه القريبة:

«لكن أنت يا حاج عرفت منين؟»

«عرفت إيه يا أبو عبد الله؟»

«الكلام ده».

«كلام إيه؟»

«بتاع الشكوى والحكاية دى».

«خروجك على المعاش يعنى؟»

البهى عثمان هز دماغه على نحو غير محسوس.

والحاج محمود همس قائلا إن محمد أفندى الرشيدى، أبو حنان، أخبره بكل شىء، وتهدج صوته الأجش:

«إحنا أهل يا أبو عبد الله. مش كده وإلا إيه؟».

والبهى عثمان قال:

«آه».

ورمق محمد أفندى الرشيدى بجانب عينه وهو يشعر بالكراهية له وللشعر القصير الذى يتدلى من فتحة أنفه المقرفة.

صحيح أنه طول عمره لم يكن يشعر نحوه بأى ارتياح، إلا أن هذا الشعور كان يزيد أو يقل حسب الظروف، وهو الآن فى ظرف من الممكن أن يقبل فيه العمى ولا يقبله. وراح الرواد يتزايدون. وراح الصخب يعلو فى انتظار المرشح الذى تأخر. وبدأ البهى يشغل وقته بالتفكير فى كل العيوب التى يعرفها عن الرشيدى، وأولها حكاية ذهابهما إلى الجامع لأداء الصلاة، أيام الشباب، وكيف أنهما سجدا لله عز وجل، حين تدحرجت بريزة فضية من جيب أحد المصلين واستقرت أمامهما، وكيف أنه لمح، عندما ركعا، يد محمد الرشيدى تنزل على البريزة بالضبط، وكيف أنه بعد

أن قال: «سبحان ربنا الأعلى» ثلاث مرات، وسحب كل منهما يديه واعتدل، كانت البريزة، بقدرة قادر، قد اختفت.

وفى حوش البيت قبل أن يفترقا، راح البهى يحدق إلى جيب جلباب الرشيدى العلوى، ويبحث عن علامة البريزة الثقيلة فى القماش الخفيف.

وأفاق على الهياج الذى صنعه مرافقو المرشح الذى وصل محمولا من طريق النيل وهو جالس بين ذراعى اثنين من الرجال.

وضعوه على المقعد بعناية.

كان يلهث فى بدلته الكاملة وقد تدلى منديله الملون من جيب السترة. ولاحظ البهى عثمان أن الرجل ممتلىء الجسم وشعره فضى، ووجهه المحمر مائل على صدره، وفى فمه اعوجاج خفيف، وكان الشيخ على السنى خطيب الجامع يجلس إلى يمينه مبتسما، بوجهه الطيب، ولحيته الكبيرة السوداء. كانت المقاعد كلها مشغولة، ووقف عدد كبير من الناس. كما لاحظ أن المرشح سرعان ما هدأت أنفاسه، وفتح عينين رماديتين، وفوجىء بصوته الجهورى وهو يصيح:

«مساء الخير يا رجّالة».

وتلفت بوجهه هنا وهناك وهو يقهقه دون صوت، وعدل من وضعه وسكت.

كانت هناك مجموعة من المرافقين تتجول بين الناخبين لكى تتأكد من أن كل واحد شرب كركديه. والبهى لاحظ أن محمد أفندى الرشيدى طلب كوبا آخر شربه وهو فى حال من اللذة الواضحة، وأن المرشح عاود إغلاق عينيه ومال رأسه الثقيل، واستند بخده إلى يده، بينما اتكأ بمرفقه على

المنضدة. وشعر البهى بالاشمئزاز من دناءة الرشيدى، وفَطِن إلى أن كل مجموعة بدأت تتحدث مع بعضها، وبدأ يظن أن اللقاء كَان من أجل شرب الكركديه فقط، ولكنه فهم من الكلام أنهم فى انتظار المنشورات من المطبعة لكى يتم توزيعها عليهم. واقترح الحاج محمود الفحام أن يقوم أبو عبد الله بتسليم الشكوى للمرشح، ولما لاحظ أنه لم يرد عليه، قدم الاقتراح نفسه إلى محمد أفندى الرشيدى الذى قال:

«هو لسه ما سلمهاش؟»

والتفت إلى البهى عثمان:

«جرى إيه يا أبو عبد الله؟ قوم ادخل عليه».

ولكن البهى تجاهله تمامًا، فى حين تنبه عبد الرحيم للكلام ومد يده:

«هات يا سى البهى».

التفت البهى إليه، وعندما لاحظ إصراره، مد يده بالمظروف الملون وهو يقول:

«الراجل نايم يا عبد الرحيم».

ولكن المرشّح لم يكن نائما تمامًا لأن خده انزلق على كفه وهو ما زال مغلق العينين، وترك مرفقه على المنضدة وراح يفرد أصابعه ويلمها فى الهواء، ولما لامست أطرافها لحية الشيخ على السنى أمسك بها يمسدها برفق ويجذبها، بينما ظهرت أمارات التفكير على وجه الشيخ الذى مال إلى سطح المنضدة مع حركة الجذب. وفى ذلك الوقت اخترق أحدهم الزحام وهو يحمل إلى صدره مجموعة من رزم الورق المربوط، وصاح:

«المنشور يا باشا».

انتفض المرشح منتبها، وأفلت اللحية وهو يصيح:

«مستنى إيه: وزع على الرجالة. ده معمول علشانهم».

والتفت إلى الشيخ على:

«ولا إيه يا فضيلة الشيخ؟»

ابتسم الشيخ ولم يعلق

أمسك البهى عثمان بالمنشور ورأى الصورة الباهتة فى أعلاه، وقارن بينها وبين الرجل ولاحظ أنها تشبهه، ومر بعينه على السطور المكتوبة عن الخدمات التى سبق له القيام بها، وانتبه لصوت المرشح الذى رفع يده بنسخة من المنشور وهو يصيح:

«والله. والله. أنا لو ناخب، لازم أدى صوتى للراجل ده».

وانفجر ضاحكًا، وشاركه الآخرون.

ولما لاحظ عبد الرحيم أنهم اقتربوا منه لكى يحملوه، أسرع نحوه ودفع بالشكوى إلى جيبه، بينما لحقه الحاج محمود الفحام وصاح أن هذا الرجل الطيب، مشيرًا إلى البهى عثمان، سوف يضمن له أصوات فضل الله عثمان كلها. ورآه البهى وهو يهز رأسه متأثرًا بينما هو يجلس على الأذرع المتقاطعة. وقبل أن يستديروا به فى طريقهم إلى العربة الكبيرة المفتوحة، لمح خصيتيه الصغيرتين مزنوقتين فى جانب من حجر بنطلونه المشدود، وتعرت مساحة من ساقيه النحيلتين وبانت جواربه.

ظلوا صامتين حتى وصلوا إلى فضل الله عثمان.

حينئذ قال الحاج محمود الفحام :

«أنا متفائل خير بالراجل ده» .

وقال عبد الرحيم وهو يمشى واضعًا يديه فى جيوب الجلباب :

«أما يبقى ينجح الأول . وحتى بعدما ينجح ، محتاج زيارة تانية» .

وعلق محمد أفندى الرشيدى :

«ده مرشح الحكومة يا سى عبد الرحيم . أنت شفت العربية اللى ركبها؟» .

البهى عثمان تجاهل كلام الرشيدى ، ورد على عبد الرحيم قائلاً :

«ده كان قاعد نايم» .

وقال الفحام :

«من التعب يا أبو عبده . طول النهار بيلف؟»

«يقوم يلعب فى دقن الشيخ على السنى؟»

قال الرشيدى :

«إزاى الكلام ده؟»

البهى عثمان وقف عن المشى وقال غاضبًا :

«أيوه لعب ، مسك دقنه وشدها» .

«ما حصلش» .

وقال عبد الرحيم :

«جرى إيه يا اخوانا؟ ما احنا كلنا شفناه وهو ماسك دقن الراجل وبيشدها».

«أنت قصدك لما افتكرها كباية الشاى؟»

«كباية الشاى؟»

«أمال إيه؟»

والبهى عثمان فكر، وقال:

«طيب وإيه جاب الكباية اللى على الترابيزه؟ عند دقن الشيخ على، اللى فى وشه؟»

ولما سكتوا، أضاف:

«غير كده، تيجى منين كباية الشاى،

إذا كانت الناس كلها، شربت كركديه؟»

ودون أن ينظر هنا، أو هناك، ابتسم ابتسامة معناها:

«آه يا بهايم يا ولاد الكلب!».

لم يستطع أحد أبدًا أن يوقف البهى عثمان عن الطريق الذى اندفع إليه.

طول الليل يكتب وينسخ شكاوى يوضح فيها كيف أن المصلحة ظلمته فى خمس سنوات كاملة من مدة خدمته.

ومهما كان الوقت الذى تنتبه فيه نرجس، وتفتح عينيها وهى نائمة على جنبها فى عز الليل، كانت تراه وهو منكفئ على الطبلية يكتب دون توقف، وقد تكومت الشكاوى وصورها على الكنبة المجاورة لكتفه اليسرى. وتناثرت على الكليم من حوله، أوراق سليمة وممزقة، بيضاء ومسطرة، وأخرى من الكربون.

فى البداية كان البهى يكتب بقدر من التركيز، ويكتفى بشرح حكاية الظلم الذى وقع عليه، والنتائج التى لا يمكن تصورها، فى حالة عدم قيام الحكومة بإصلاح الأمر. وكان واثقا بأنها سوف تصلحه، لأن الخطأ الذى وقع واضح، هو معين على الكادر الفنى، وكل الأوراق الرسمية تثبت ذلك، أى أن سن خروجه على المعاش يجب أن يكون فى الخامسة والستين، أما اعتباره على الكادر الكتابى، عن طريق الخطأ، وإنهاء مدة خدمته فى سن الستين، فهو لن يحرمه فقط من العمل وصرف مرتبه كاملاً طول السنوات الخمس التى يستحقها، ولكنه سوف يحرمه من عشرة جنيهات، بواقع جنيهين علاوة عن كل سنة، وهو ما يعنى زيادة معاشه، عندما تنتهى مدة خدمته الفعلية، فى سن الخامسة والستين.

والحقيقة أن البهى عثمان صرف الليالى حتى استطاع أن يعرض موضوعه بوضوح بحيث يمكن لأى مسئول أن يفهمه، الأمر الذى ملأه اعتزازًا بقدرته التى تجلت وقت الحاجة. وقد أغلق الباب، وجلس أمام نرجس على الكنبة الأخرى، قرأ لها الشكوى متمهلاً، بصوت سمعته غريبا فى أذنيها. وعندما أعاد القراءة مرة أخرى، وهو واقف، تغير شكله أكثر، الأمر الذى جعلها تسرح بعيدًا عن الكلام الذى تسمعه. كلام يبدأ بالبسملة، والتحية، ثم يعرض موضوعه، يقول إنه لا يتصور أن يحدث

معه ذلك بعد اثنين وأربعين عامًا من الخدمة، لم يوقع عليه خلالها جزاءً واحدا، لذلك فهو يطالب برفع الظلم عنه، ورد السنوات الخمس التى هى من حقه، أسوة بكل زملائه المعينين على الكادر الفنى نفسه. وكان ينهى شكواه قائلاً إنه يحتفظ لنفسه بحق المطالبة بالتعويض إذا استمر هذا الخطأ، وهى عبارة استقرت فى وعيه بسبب من طابعها القانونى، ولأنه صادفها فى العديد من الشكاوى التى كان شاهدًا عليها. كان يلقيها فى إيقاع بطىء منذر. الأمر الذى جعل نرجس تنتبه، ويأخذها شىء من الوجل.

إلا أن الآمال التى علقها لم تستمر طويلاً؛ جاءت الإجابة تقول إنه حُوِّل قبل عدة سنوات من الكادر الفنى إلى الكادر الكتابى بعد أن قرر القومسيون الطبى، عند تجديد رخصة القيادة، أن نظره أصابه الضعف، ولم يعد قادراً على قيادة الموتوسيكل وجمع الخطابات من الصناديق، وأنه بالفعل، اشتغل مسئولا عن دفتر الحضور والانصراف، وقد وقع فى حينه بتسلم ذلك العمل الكتابى.

هذا الكلام صدمه وجعله يغير من مضمون شكواه بحيث اتخذت طابع الاستغاثة الصريحة. أرسل عشرات منها إلى المصلحة، والوزارة والنقابة، والنائب العام، والاتحاد الاشتراكى، كما كتب رسالته الأخيرة إلى الرئيس جمال عبد الناصر. أخبره أنهم أثناء فرز الخطابات، كانوا يعثرون على منشورات الضباط الأحرار (بسبب مظاريفها المتشابهة) قبل قيام الثورة، وأنهم لم يبلغوا عنها، بل كانوا يعطونها لزملائهم الموزعين لكى يقوموا بتوزيعها دون أن يشعر واحد من المسئولين. كان يأمل أن الرئيس سوف يقدر أنه أحد الذين أخلصوا للثورة وساهموا فى نجاحها. وبينما هو يتوقع ردًا مات عبد الناصر فجأة.

تطورت المشكلة، تحدثت معه نرجس والعيال. طلبوا منه أن لا يهتم، وأن الوقت قد حان لكى يستريح: «وبعدين فرقها بسيط، يعنى تعوضه من توفير المواصلات». والبهى عثمان كان يهز رأسه مقتنعًا بشىء من الحرج، إلا أنه، بينه وبين نفسه، كان مؤمنا بعدم موافقته على قبول هذا الوضع أبدًا. كان يبدأ يومه بحلاقة ذقنه أمام المرآة وهو يتطلع إلى وجهه الطفولى المشرب بالحمرة، وعينيه الجميلتين، ويسوى شاربه القصير الذى شابه البياض، ويرتدى بذلته البنية ورباط عنقه اللامع، ويحمل ملفا فيه صور عدة من شكواه الأولى ويتجه إلى المصلحة. أما الآن، فقد جعلته النتائج السلبية يفقد نضارته تمامًا، كان يبدأ يومه بارتداء ثيابه على عجل، يتناول الملف الذى تضخم وذبلت أوراقه، دون حلاقة، ويندفع دون تمهل.

كان يعود آخر النهار مهدودًا، من حيث لا يعلم أحد.

لم تعد نرجس تراه نائمًا، فى الليل، أو فى النهار.

مع الوقت، تخلى تمامًا عن عاداته السابقة؛ فهو يرتدى أى بنطلون أو قميص يخصّه أو يخص أحدا من الأولاد ما دام قريبا من يده، الأمر الذى جعل كل واحد منهم حريصا على ثيابه. كما أنه صار يسخر علانية من حرص نرجس على مشاعر الناس ولم يعد يهتم إطلاقا بما يقوله فلان أو فلانة، وتوقف تمامًا عن الذهاب إلى الجامع.

البهى عثمان، رفع قدمه اليمنى، بقدر ما يستطيع.

صعد إلى عربة نصف النقل، وجلس بجوار نرجس فى أول الدكة الخشبية، داخل صندوق السيارة المصنوع من مشمع، مبقع، ومقطوع.

كان يرتدى بدلة بنية قديمة وكرافتة لامعة.

يده اليمنى تتشبث جيداً بالقائم الحديدى المبروم، ويده اليسرى تمسك المسبحة، وأجرة الركوب.

وبينما كانت نرجس ترتدى ثوبها الثقيل الداكن، وطرحتها الحريرية السوداء، وتميل برأسها لكى تتفرج على الطريق، كان هو يميل بركبته من سكة الركاب الذين يصعدون.

تحركت العربة وقد امتلأت، ووقف الرجال على المصد الخلفى وهم يمسكون بعارضة السقف المغطى. راحت تتقدم ببطء وهى تتأرجح بحمولتها، وتتوقف مراراً بسبب العربات، وأكوام الزبالة والناس. وعندما عبرت المزلقان، انخفض المصد واحتك بقوة بحديد القضبان.

قال البهى وقد آلمته الخبطة فى مؤخرته الجافة:

«العربية بقت على الزنط».

وضحك الرجل المعلق على يمينه، والتفت إلى جاره.

البهى عثمان لاحظه فوراً، ورفع مقدمة رأسه الخالية من الشعر، وابتسم متسائلاً بعينيه المجهدتين.

قال الرجل موضحًا:

«اسمه الچنط، مش الزنط».

استغرب البهى عثمان، وانشغل باله طول الطريق.

وعندما نزلا، وعبرا الشارع، فتحت نرجس فمها الخالى من الأسنان:

«هو أنت كنت بتقول إيه، لما الناس ضحكت عليك فى العربية؟»

توقف على الرصيف وسألها غاضبًا:

«مش كان فيه حاجة زمان، اسمها الزنط؟»

«الله. هو إيه اللى كان فيه حاجة زمان، اسمها الزنط؟»

«أمال أنا جبت الكلمة دى منين؟»

«جرى إيه يا أبو عبده؟ مش هو ده الطرطور الصوف، اللى كانت المصلحة بتسلمه لك مع البالطو الشتوى، قبل ما تطلع على المعاش؟»

أبو عبده تأملها قليلاً، وواصل مشيه صامتًا.

وهى أضافت:

«ده إحنا لسه عندنا واحد منهم».

«فى الشقة؟».

«والنبى شايفاه وأنا باروق الدولاب».

وتوقفت فى قطر الندى، أمام البيت الذى يطل على فضل الله عثمان:

«وأنا لابسه بالمرّة، أطل على خالتك هانم، وأجيب لك المنشار اللى أنت عاوزه من عبد الرحيم».

قال:

«عبد الفتاح مين؟»

«جرى إيه يا راجل؟ باقول لك عبد الرحيم، أخويا».

ودفعت الباب الخشبى المردود، ونزلت العتبة، وتقدمت فى الطرقة الطويلة:

«يا جماعة ياللى هنا».

صاحت دلال من الداخل:

«ادخلى يا عمتى».

وقال شقيقها وهو يغادر الحجرة الكبيرة:

«تعالى يا أم عبد الله».

«أمك عاملة إيه يا عبد الرحيم؟»

«آهى زى القردة».

«أحسن من امبارح؟»

«بكتير».

ورافقها إلى الحجرة الصغيرة فى نهاية الحوش المسقوف. وتبعهما الولد عبد الله الصغير، وبقية الأولاد. كانت نائمة فى العتمة، غير واضحة فى ركن السرير. قال الولد:

«قومى يا هانم. بنتك جت».

قال عبد الرحيم وهو يلكز الولد:

«نرجس يامه».

«تعالى يا ختى».

«خليكى نايمه. أنا قاعدة مع العيال بره».

نرجس قعدت فى الحجرة الكبيرة. ودلال عملت الشاى.

شربوه وتكلموا. ولما قامت، عبد الرحيم رافقها وهو يحمل المنشار.

فتحت الباب ودخلت.

كان الجو حاراً.

الشقة كلها مضاءة، والشبابيك مقفلة، والبهى عثمان قاعد على كنبة الصالة أمام التليفزيون المفتوح، بالفانلة واللباس.

الطرطور الصوفى الطويل يغطى رأسه حتى الحاجبين وحافته العريضة مدلاة حول رقبته، بعراويها الصغيرة التى تثبت فى ياقة المعطف أثناء مطر الشتاء.

ضربت نرجس بيدها على صدرها وهى تجلس على حافة الكنبة الأخرى.

وأمسكت بذقنها وقالت:

«بسم الله الرحمن الرحيم».

وقال عبد الرحيم وهو واقف بالمنشار فى فتحة الباب:

«إنت لابس إيه فى دماغك؟ ده الجو ولعه».

كان صامتا.

فى عينيه انفراجة.

رأسه المختفى داخل الطرطور مائل قليلاً إلى ناحيه

يمناه فى حجره، والأخرى ممتدة على ركبته المثنية العالية.

والمسبحة القديمة مدلاة.

من أصابع اليد الملمومة.

فى شمس النهار.

على جانب من الدرب المترب الصاعد.

بين مدافن سيدى عمر.

جلست نرجس على الأرض باكية وحولها بناتها.

ونساء فضل الله عثمان النائحات فى جلابيبهن المعفرة السوداء.

وعندما مر بها البهى عثمان، محمولاً فى صندوقه الخشبى المغطى بالقماش الباهت المنقوش، على بعد خطوات قليلة منها، رفعت وجهها بالعيون التى جف فيها الدمع.

صاحت تعاتبه:

«كده برضه تعملها يابو عبد الله؟»


Twitter: @alqareah

٣

الدنيا صيف، والبلح الأحمر طلع.

ونرجس كانت وحدها لأن البهى عثمان كان فى المصلحة، والولد عبدالله فى المدرسة، والعيال فوق السطوح.

كانت تسرح شعرها الطويل المفروق، وجهها الخمرى محمر ودافىء، وتضيق عينيها كلما تعثرت الفلاية الخشبية فى خصلاته الكثيفة الدكناء.

عبد الرحيم فاجأها وسلم عليها. سحب القفتين داخل الحجرة وقعد على الكنبة حتى نشف عرقه وارتاح. وهى لمت شعرها على ظهرها وبدأت تسأله عن البلد. ولكن عبد الرحيم خرج إلى فضل الله عثمان ومنه إلى قطر الندى، ومشى بجلبابه البلدى وحذائه الجديد حتى طلع إلى طريق النيل ووقف بقامته الكبيرة على حافة الشاطىء.

راح يتفرج على البنات وهن يغسلن الأوانى أسفل الدرج الحجرى. وراقب الأولاد الذين يصطادون السمك بالسنانير ولاحظ أن كل ولد منهم يمسك غابة رفيعة أقل من متر أو أطول قليلاً، وأن السمك الذى يخرج من الماء كان صغيراً وهو يرتجف تحت الشمس، ويضىء.

عبد الرحيم تقدم ونزل الدرج الحجرى المبتل وسأل أقرب الأولاد:

«أنتم بتصطادوا بأيه يا شاطر؟»

قال الولد :

«بنصطاد بسنّارة» .

«أنا باسأل عن الطعم» .

فتح الولد يده عن كرة صغيرة لدنة :

«دى؟» .

«آه» .

«دى عجينة» .

«قمح ولا دره؟»

«باقول لك عجينة . بس زفره» .

وجذب السنارة بشدة ، ولكنها خرجت خالية من الماء .

حينئذ رفع عبد الرحيم وجهه ، وتطلع بعينيه الواسعتين إلى سطح النهر الذى غضنه الهواء الخفيف . وبعد أن أخذ كفايته من الفرجة على الأولاد ، والبنايات النظيفة الهادئة فى الجانب الآخر ، صعد الدرجات المبتلة وهو يلم ذيل الجلباب ، وعبر الطريق إلى ناصية حارة (حوّا) وتمهل أمام ربيع بائع شباك الصيد والسنانير ، ورأى حزمة الغاب الرفيعة المركونة عند مدخل الدكان ، ورجع إلى فضل الله عثمان .

كان البهى عثمان قد عاد من البوستة . قلع بدلة المصلحة والطربوش ولبس الجلباب . ونرجس ضفرت شعرها وربطت المنديل . والولد عبد الله رجع من المدرسة ، سبق خاله ووقف مع أخيه سلامة وأخته الصغيرة إحسان ، وفى يد كل منهم قرصة صغيرة يقضمها . يتابعون أمهم التى

رفعت ملاءة السرير ذى الأعمدة الطويلة السوداء حيث وضعت بلاص المش الصغير، وقدر السمن البلدى، وعلبة العسل الأبيض، وراحت تلتقط أعواد البرسيم عن قطع الجبن القريش التى امتلأت بها المصفاة النحاسية، وطلبت من البهى أن يضع لها القفة الخالية على ظهر الدولاب، وسحبت القفة الأخرى. تناولت منها عددا من الفطائر البلدية الثقيلة التى ترشح بالسمن البلدى ووضعتها فى غطاء الحلة النحاسية الكبيرة، وركنت القفة بما تبقى فيها من أرغفة العيش المرحرح والقرص الوردية الصغيرة المعجونة بالحليب الخالص، والتى جعلت البهى عثمان يشم رائحة البلد وهو واقف على الكنبة بقامته القصيرة النظيفة، يعدل القفة الخالية على ظهر الدولاب. وعندما دخل عبد الرحيم نزل واحتضنه:

«سلامات يا عبد الرحيم».

«إزيك أنت يا سى البهى؟»

«بخير، كنت فين؟».

«طلعت على البحر وجيت».

«الحمد لله على السلامة».

«الله يسلمك. إزيك يا واد يا عبد الله؟»

وقال عبد الله دون أن يلتفت:

«كويس».

كانت نرجس قد أطفأت الوابور، ووضعت الصينية النحاس على الطبلية، ومدت طبق الأرز الكبير وسلطانية الشربة القيشانى، وزوجًا من الفراخ المحمرة التى أرسلتها أمها هانم من البلد:

ورجعت تقول :

«أمك عامله إيه يا عبد الرحيم؟»

«بتسلم عليكى» .

«وستك عزيزه؟»

«زى القردة» .

«وخالك عبد العزيز؟»

«حلو» .

وقال البهى عثمان وهو يمضغ :

«لسه الميه بتحرقه؟»

«آهى ساعات تحرقه وساعات يروق» .

«لما نيجى مسافرين ناخد له علبة فوار . الفوار هنا حلو قوى» .

«فوار إيه؟»

«مخصوص للحرقان» .

«وماله؟»

هكذا قال عبد الرحيم وهو مشغول بتلك الغابة الطويلة التى رآها فى حوش البيت وفى آخرها مقشة من اللوف الأحمر . وقال «هى الغابة اللى فى الحوش دى بتاعة مين؟»

قالت نرجس :

«بتاعتنا» .

«وسايبينها فى الحوش ليه؟»

«أصلها طويلة على القوضه. بتسأل ليه يا عبد الرحيم؟»

«عاوز أعملها سنارة».

«سنارة إيه يا وله؟ أنت جاى مصر تصطاد ولا جاى تشتغل؟»

وقال الولد عبد الله:

«هو إيه اللى سنارة؟ دى تروح لنص البحر».

وتساءل البهى:

«جبت جواب التعيين ولا نسيته؟»

«معايا».

وقعد يأكل وهو ساكت. ثم انشغل فترة المساء بإعداد الغابة الطويلة بينما نصفها خارج الحجرة بسبب طولها الذى جاوز الأمتار الخمسة بقليل.

اشترى أكبر هلب وجده عند ربيع بائع السنانير، وثقالة من الرصاص، وخيطًا متينا ربطه بطرف الغابة بعد أن خلع اللوفة الحمراء سليمة كما اشترطت نرجس عليه، حتى يمكنها أن تستخدمها وقت اللزوم. عبدالرحيم فعل ذلك بينما البهى عثمان جالس على الكنبة يدخن السيجارة اللف، يراقبه وهو نعسان، بوجهه الأبيض المشرب بالحمرة، وشعره الأجعد الداكن، وعينيه اللوزيتين.

وقام الولد عبد الله وأتى بسنارته الصغيرة من جنب الدولاب:

«اصطاد بدى أحسن يا خال».

وتأمل عبد الرحيم الغابة الرفيعة وقال :

«إيه دى؟»

«ما هى قدامك أهه . سنارة» .

«بتاعة العجين؟»

«ودود كمان» .

«ما تنفعش» .

وعلق البهى عثمان :

«دى حاجة ودى حاجة» .

وقال الولد :

«هو حر . بس لما العيال تضحك عليه ، ما ليش دعوه» .

قال عبد الرحيم :

«اسكت يا واد يا ابن نرجس . اسكت» .

وتثاءب البهى ساخراً :

«يسكت إزاى؟ ما يصحش» .

ضبطت نرجس براد الشاى على الوابور المشتعل :

«ما هو صحيح يا عبد الرحيم . الناس كلها بتصطاد بسنانير صغيرة» .

توقف عبد الرحيم عن تركيب قطعة الرصاص ، وقال :

«جرى إيه يا نرجس؟ هو قناية؟ ده بحر» .

وعقد قطعة الفلين المدورة .

لف الخيط على الغابة الطويلة ، وركنها خارج الحجرة .

ونام .

عندما قاموا فى الصباح ، أعادوا المرتبة التى نام عليها عبد الرحيم والأولاد إلى مكانها مع المرتبة الأخرى على السرير العالى ، وتناولوا إفطارهم من الفطير والجبن والعسل الأبيض وشربوا الشاى .

قسمت نرجس واحدة من الفطائر البلدية شرائح متساوية ، مع كل شطيرة أضافت قطعة من الجبن القريش وبعض القرص ، ووضعت الطرحة على رأسها ، ودارت بحمولتها على جيرانها من السكان .

عندما عادت ، خرج البهى عثمان من المرحاض وهو يخبط بالقبقاب ، وقد توضأ وأعد نفسه لصلاة الجمعة ، بينما غادر عبد الرحيم البيت وهو يحمل على كتفه أطول سنارة شهدها فضل الله عثمان حتى ذلك الوقت ، والولد عبد الله يتبعه بالصندل والجلباب .

نزل عبد الرحيم درجات السلم الحجرى المبلول ، وتقدم يساراً على الحافة وهو يفحص المكان تحت قدميه ، وركن الغابة ولم الجلباب على وسطه ، وانتزع من طمى الشاطىء ، بكلتا يديه ، حجرا كبيرا ألقى به ، راح يتلقط دود الصيد الطويل الأحمر الذى راح يفر وهو يلاحقه ، ثم أعد كرة

من هذا الطمى حول الدود الذى جمعه لكى يظل حيًا. واستبقى واحدة فى راحة يده، يصفق عليها بيمناه، ولما همدت قطع منها طرفا طعم به هلب السنارة، وترك البلغة للولد عبد الله الذى استلقى على الشاطىء، خوض فى ماء النهر الذى بلل سرواله المدلى، وطوح الخيط بكل قوته، وراح يتابع الغمازة.

وما إن امتدت الغابة الطويلة غير المستوية وتقدمت على كل شىء سواها حتى أثارت انتباه الأولاد، وساد الشاطىء جو من الترقب والقلق.

وانتهت الخطبة الطويلة، كما انتهت صلاة الجمعة بالمصلى الذى يعلو الشاطىء، وعبد الرحيم واقف يتابع الغمازة بعينين يقظتين، حتى بدأت تغطس وتطفو على سطح الماء.

تحفز وهو يقبض على الغابة جيدًا فى انتظار التوقيت المناسب، وفجأة جذبها بكل قوته. وانسحب الخيط سريعًا وهو يثير رذاذا ويدور فى الهواء ثم يقترب، وفى نهايته الصيد الأدكن الذى ما إن واجه عبد الرحيم حتى خمشه بقسوة فى أنفه وهو يرفرف ويطير محلقًا بطرف الخيط، لأنه كان عصفورة علقت فى هلب السنارة أثناء طيرانها فى الجو. وصدم عبدالرحيم لأنه لم يفهم وظن الشىء خارجًا من الماء. كما بوغت الحاضرون حين رأوه يصعد الشاطىء متعثرًا وبعيدًا عن السلم يقع ويقوم، ولكنه رغم ذلك يظل قابضًا على الغابة الطويلة رافعًا إياها، واندفع الأولاد وراءه والعصفورة المشبوكة تأخذ طرف الخيط وتحلق به أعلى من الجميع، حتى صارت زفة كبيرة اتجهت ناحية الكوبرى الكبير.

عاد عبد الله إلى فضل الله عثمان وألقى بلغة خاله وراء الباب. وقالت نرجس:

«إيه دى يا عبد الله؟»

«البلغة بتاعة خالى عبد الرحيم».

«أمال هو فين يا وله؟»

«ما أعرفش».

«يا مصيبتى. يبقى غرق فى البحر».

«ما غرقش ولا حاجة».

«أمال جايب بلغته ليه يا عبدالله؟»

«هو اللى سابها وجرى».

وقام البهى عثمان واقفًا:

«جرى؟»

«والناس كلها بتجرى وراه».

وصرخت نرجس:

«ليه؟ عمل إيه يا عبدالله؟ اتكلم».

«أصل السنارة بتاعته اصطادت عصفورة».

وقال البهى عثمان وقد أصفر لونه.

«يا نهار أسود. عصفورة؟»

«آه. من البحر».

«إزاى الكلام ده؟»

«بس عصفورة لونها أزرق».

«وهو فين دلوقت؟»

«جرى ناحية القسم».

وظهر التردد واضحا على وجه البهى عثمان:

«القسم؟»

وحدق إلى الولد بعينين غاضبتين:

«آه يا ابن الكلب يا وسخ».

وقال عبد الله وهو يوشك على الهرب:

«الله. وأنا مالى؟»

أسرع البهى إلى فضل الله عثمان وهو يمسك ذيل الجلباب، بينما خطفت نرجس الملاءة ووضعت البرقع على وجهها واندفعت.

عندما عثروا عليه بعد رحلة صيده الأولى تلك، كان منهكًا فى جلبابه المبلول، وقدميه الحافيتين. كان وجهه مجروحا وشعره منكوشا بعد أن أضاع طاقيته الجديدة حتى أنكرته نرجس، واقتربت منه لتعرفه.

عادوا به إلى فضل الله عثمان، وأغلقوا الباب على أنفسهم.

اغتسل عبد الرحيم ونام مغمض العينين. لم يهدأ إلا بعد أن أعدت له نرجس كوبًا من الشاى ودعكت جبهته بنصف ليمونة خضراء.

حينئذ فقط فتح عينيه وأدارهما فيمن حوله.

ثم انخرط فى البكاء.

عندما أفاق، بعد أن أزالوا الحصاة من كليته اليمنى، رآها أمامه بالبالطو الأبيض المحبوك، وغطاء الرأس المشبوك فى شعرها الأشقر.

ابتسمت له بعينيها الملونتين، وانصرفت.

فى المرة الثانية مدت يدها وعرّته.

غيرت الضمادة، ونظفت بطنه المكشوف، وبينما هى تسحب الجلباب على ساقيه، برفق، لامس جانب إصبعها الصغير عضوه النائم، وانصرفت.

مع كل غيار جديد كان جسده كله يتوقع تلك اللمسة التى لا ينساها. وعندما لاحظ أنها لم تعد إلى فعلها مرة أخرى، أدرك أنها تشعر بالحرج لأنه يتابعها بعينيه. لذلك فكر أن يعفيها من هذا الحرج. وكانت وسيلته أن يجعلها تظن أثناء الغيار أنه غير منتبه، بل مشغول بأشياء أخرى. لذلك يتجه بنظره ناحية النافذة البعيدة، أو يغمض عينيه تمامًا. ولكنها كانت تنتهى من عملها، وتسحب طرف الجلباب على ساقيه المشعرتين.

إلا أنها، قبل أن تنصرف، كانت تتمهل عند وجهه القمحى وعينيه البنيتين، ونظرة الامتنان الوديعة التى يستقبلها بها. لقد أدركت أنه ابن أسرة طيبة، مقتدرة. شقيقته نرجس فتية وجميلة، تزوره كل يوم وهى

لابسة الغوايش الذهب والحلق والكردان، محملة بأكياس الفاكهة التى توزع منها على المرضى والحكيمات. كما كان للبهى أفندى، زوجها، هيبته وهو يدخل فى بدلته الصوفية وربطة عنقه البنية بنقوشها الداكنة وطربوشه الأحمر، حيث يجلس صامتًا على حافة السرير بشعره الأجعد اللامع، يلف السيجارة من علبته المعدنية المنقوشة، ويتطلع إليها بوجهه المشرب بالحمرة وعينيه الفاتنتين. كان اسمها أفكار. وكانت تعرف، مثل غيرها من العاملين، أن عبد الرحيم أودع أمانات المستشفى مبلغًا كبيراً من المال قال إنه إيجار أرضه الموجودة بالبلد (والحقيقة أنه كان نصيبه من ثمن قطعة أرض باعوها لأنها خارج الزمام) كما تعرف أنه موظف حكومى. تصوب له النظرة من عينيها الجريئتين فيرجع عينيه على الفور. وعندما تحضر نرجس لزيارته وتسأله عن الجرح يطمئنها ويشكر لها فى الست الدكتورة.

مرة قالت نرجس:

«أنهى دكتورة يا عبد الرحيم؟»

«اللى بتغير لى».

«البيضة الحلوة دى؟»

«أيوه. طيبة وإيدها خفيفة قوى».

«دى الممرضة يا وله».

ضحك وقال:

«لأ يا شيخة».

«الله، مش أفكار؟»

«أيوه».

«والنبى الممرضة بتاعة العنبر».

نرجس لم تضيع وقتًا. كانت تريد أن تبعده عن بسيمة الموضة بأى ثمن. تحدثت مع أفكار وعرفت عنوان البيت الذى كان على مقربة من سيدى حسن أبو طرطور. ولم يمر على خروج عبد الرحيم من المستشفى عدة أسابيع إلا وكان قد خطبها.

فى البداية، عندما أخبرته نرجس بموافقة أفكار على الخطبة، لم يقتنع لولا اللمسة القديمة التى لا ينساها ويتذكرها فى كل وقت حتى ينتصب ولا يمنعه من الاستمرار إلا جرح بطنه. هذه اللمسة التى كانت سرًا بينهما هى التى جعلته لا يستبعد الموافقة. ومع الوقت تقبل حقيقة أن بشرتها وردية. وعينيها لونهما أخضر وأصفر وشعرها أشقر. لكن مسألة أن صدرها نحيل ومع ذلك عندها كل هذه المؤخرة الكبيرة والساقين الممتلئتين هى التى جعلته يلزم مكانه، مع إحساس مبهم بالأسى، واليأس.

مع ذلك، تمت الخطبة وكتب الكتاب فى يوم واحد. واتفقوا أن يكون الزفاف فى مثل هذه الأيام من العام القادم، ذهب عبد الرحيم مع البهى عثمان إلى شركة بيع المصنوعات المصرية واشترى بدلة صوفية لونها زيتى وبها خطوط رفيعة بيضاء، وقميصا أبيض وكرافتة. راح يراقب البهى عثمان وهو قاعد على الكنبة يعقدها حول ركبته المثنية. ثم انحنى أمامه بياقة قميصه المرفوعة وارتداها. وجاءت أمه هانم من البلد بقامتها الممشوقة ووجهها المشرق فى طرحتها الكريب جورجيت السوداء، وجلست

بكبريائها المعروف تدارى إعجابها بجمال أفكار التى ألبسوها شبكة عبارة عن سوار على شكل ثعبان ثقيل وحلق ودبلة. وفى الركن، إلى جوار البهى عثمان، جلس عبد الرحمن، عمدة البلد وابن عم عبد الرحيم، الذى جاء بعربته المرسيدس البيضاء، ومعهم الخال الكبير عبد العزيز أبو شنب بوجهه الغاضب وعينه شبه الحولاء، والذى أصر بعد كتب الكتاب على عدم البيات والعودة إلى البلد، بأية طريقة كانت.

أفكار لاحظت أن عبد الرحيم يخشاها ولذلك شجعته. كانت تمسك يده لكى تشرح له شيئا، أو تلمسه أثناء مرورها بمؤخرتها التى كان لها موضع خاص بالنسبة إلى أفكاره، والحقيقة أنه حاول أكثر من مرة أن يتجرأ عليها ويلمسها لكن قواه خذلته تماما. كان مجهداً من لون شعرها وعينيها وبشرتها وصوتها الحريمى الآمر. وعندما وقفت تتحدث معه بالجلباب البيتى المكشوف وتفرجه على قمصان النوم الخفيفة التى أرسلها لها خالها من الخارج، ظل يتفرج ويسمعها وهو حزين فعلاً. ولاحظ أنها انتهت من إغلاق الحقيبة القديمة وانحنت أمامه. وضعتها تحت الدولاب واعتدلت. تركت خدها قريبا من فمه وأسبلت عينيها. استغرقت فى تأمل ملاءة السرير بطريقة غامضة. حينئذ تذكر لمسة إصبعها لعضوه وهو فى المستشفى وفكر أن يقبلها ولكنها ابتعدت بوجهها قليلاً وأحرج هو من مد شفتيه لكى يطولها، ووجد من الأسهل عليه أن يمد يده المدلاة بينهما ويمسك الجلباب من تحت إلى تحت ويعريها. وأفكار احمرت وخلصت جلبابها منه بالعافية وتركت الحجرة غاضبة. وهو طلب إجازة عارضة ولم يذهب ثانى يوم إلى العمل.

باتت أفكار حريصة، منذ ذلك اليوم، على أن لا تنفرد به فى أى مكان، أو تعطيه ظهرها فى أية حال من الأحوال.

انتهى الربيع واستأجرت له نرجس الدار التى تطل على فضل الله عثمان من أوله. وعبد الرحيم توقف تمامًا عن ارتداء بدلته الصوفية التى اشتراها من أجل الفرح. ولم القميص الأبيض بياقته المنشاة وركنهما فى الدولاب.

عندما يعود من العمل يقلع بدلة المصلحة الصيفية ويرتدى الصديرى البلدى بجيوبه الكبيرة التى تسع محفظته وأوراقه تحت أى من جلابيبه التى قام بتفصيلها الغمرينى، خياط البلد الذى لا يضاهيه أحد فى مصر كلها. أفكار كانت تعجب بقماش هذه الهدوم عندما يزورهم فى البيت وتراها على قده. وعندما ذهب إليهم ليلاً لكى يأخذها مع شقيقتها الصغرى إلى السينما الصيفية بعد أن فتحت بثلاثة أفلام، وجدها لابسة فستانًا كحليًا وحزامًا رفيعًا أبيض، وشعرها الأصفر ذيل حصان ونائم على ثديها الأيسر، ونظرت إليه:

«الله. هو أنت مش رايح؟»

«رايح فين؟»

«رايح فين؟ السينما».

«إزاى بقى. التذاكر أهه».

ومد يده إلى جيبه العلوى وأخرجها.

«أمال مالبستش ليه؟»

عبد الرحيم نظر إلى جلبابه النظيف المكوى، وحذائه المربوط، وضحك:

«ألبس إيه، هو أنا قالع؟»

«يا بنى آدم تلبس بدلة، قميص وبنطلون، أى حاجة تانية».

«بدلة إيه بس، هو أنا مسافر؟»

وتوقفت أم أفكار التى كانت تذهب وتجىء عبر الصالة:

«جرى إيه يا أفكار؟»

«هو إيه اللى جرى إيه يا ماما؟»

وقامت واقفة فانحدر ذيل الحصان عن ثديها الأيسر واختفى وراءها.

«مش ممكن أمشى معاه بالشكل ده».

«يا بنتى دول خطوتين».

وقالت البنت الصغيرة:

«يعنى مش ح نروح السيما يا أبله».

أفكار جلست.

«ما ينفعش».

وفكرت وقالت:

«هات التذاكر دى».

تناولتها.

قالت البنت الصغيرة:

«النبى خليه يجى معانا يا أبلة».

تأملت التذاكر وابتسمت : «وقاطعهم صالة كمان؟»، ومدت يدها بواحدة :

«اتفضل روح البس وحصلنا . أنا رايحة علشان البنت بس» .

وقالت أمها :

«والنبى ما عندك حق يا أفكار» .

«يا ماما السينما عرض مستمر . يعنى مش حايفوته حاجة . وكمان فيه حاجات لازم يبقى عارفها من دلوقت . أنا لا يمكن أخرج معاه وهو لابس جلابية أبدا ، وبعدين هو مش زعلان» .

والتفتت :

«أنت زعلان يا عبد الرحيم من كلامى؟»

«أبدا والله» .

«طيب روح غير هدومك وحصلنا» .

وعندما اقترب من الباب لحقته البنت الصغيرة وقالت :

«البس وتعالى قوام ، علشان تتفرج معانا» .

وعبد الرحيم انصرف وهو محرج جدًا من البنت .

وقالت الأم لابنتها التى كانت تشد ثوبها أمام المرآة :

«والنبى يا أفكار ما عندك حق» .

«يا ماما ، ما أقدرش أخرج معاه وهو بالجلابية» .

وزعقت :

«أنت عاوزه تفضحيني؟»

«يا بت ده لسه خام. أنت علميه».

وعبد الرحيم لم يغير هدومه ولم يذهب إلى السينما. قضى السهرة مع أخته وزوجها والأولاد. لم يكن يتكلم عليها كلامًا سيئًا أمام نرجس حتى لا تكرهها. فى النهار يحوم حول المستشفى من بعيد، وفى الليل يريد الذهاب لرؤيتها مثل العادة، ثم يتذكر أختها الصغيرة وحرجه منها ولا تطاوعه نفسه. ويقول: «بدلة إيه؟ هو أنا البهى جوز أختى؟ أما دى مصيبة والله».

ونرجس لاحظت أن هناك شيئًا لا تعرفه وقالت له:

«يا عبد الرحيم ماتقطعش رجلك من عندهم. دى مراتك».

بحث عن قميص الفرح حتى وجده تحت الهدوم، لبسه ولبس البدلة وذهب إليها فى المستشفى أثناء ورديتها. أفكار استقبلته أمام زميلاتها استقبالاً طيبًا. لم تسأله لماذا لم يأت إلى السينما وإن كانت عيناها توقفتا عند ياقة القميص المدعوكة وهمست:

«ابقى اكوى القميص».

قالت ذلك بابتسامة كبيرة من عينيها الملّونتين.

وعاود الذهاب إلى منزلها بالجلباب. وهى قالت:

«عادى، ما دام مفيش خروج».

وكانت حماته تنتهز الفرصة لتحضَّه: «يا خويا أنت عارف البنات، بتحب تتباهى بعرسانها».

أو تطيب خاطره :

«ما تزعلش من أفكار ، دى تقدم لها دكتور ورفضته» .

وتقول :

«بكره تعقل لما تدخل دنيا .

أصلها لسه صغيرة» .

ثانى زيارة إلى المستشفى كان بالبدلة الحكومية الصفراء ، عندما غادر العمل وذهب مع نرجس وبرفقتهما الولد عبد الله الذى قفز من أعلى جبلاية جنينة الأسماك وتعلق من تحت ذقنه بالسلك الشائك العالى وظل يتأرجح به فى الهواء حتى انقطع ، مخلفًا له جرحًا عميقًا داميا .

رحبت أفكار بنرجس وقامت باللازم وهى صامته تمامًا . وفى أول فرصة التفتت إلى عبد الرحيم وهو واقف فى بدلة المصلحة بأزرارها النحاسية اللامعة :

«إيه الهدوم دى؟»

«أصلى جيت من المكتب على هنا على طول» .

لم يرها عبد الرحيم ثانية إلا بعد أن أخذته نرجس وتوجّهت إلى هناك ، فى مناسبة عودة خالها من غربته فى خارج البلاد .

كانت ترى أن ما يحدث نوع من دلع البنات . أما البهى عثمان فقد كان عنده رأى مختلف ، لأن مسألة العناية بمظهره الخارجى أصبحت خصلة طبيعية فيه بعدما أدرك أهميتها ، وهى العناية التى كانت محل تأثير فى كل من رآه من أهل البلد ، بحيث أن أى واحد منهم كان يعجز فعلا ، عن

التفرقة بين طريقته فى اللبس وطريقة أى موظف آخر من أبناء مصر. صحيح أنه لا يرتدى بدلته البنية إلا فى المناسبات، ولكنه لا يتركها هكذا إلا بعد أن يكون قد نظفها بالفرشاة الخشنة ووضعها على الشماعة وألبسها نصف جلباب قديم، أما بدلة المصلحة الصيفية أو الشتوية فإنه لا يرتديها إلا بعد أن يكون قد سخن المكواة على الوابور المشتعل وبخَّها بالماء وكواها، ولا يرتديها إلا على قميص وكرافتة وبعد أن يلمع أزرارها. وقبل النوم ضرورى أن يعد علبة الورنيش والفرشاة الناعمة، وينظف الحذاء، ويركنه.

كان هذا هو أسلوبه الذى لم يغيّره، وهو الأمر الذى جعله يدرك، منذ البداية أن أفكار لا ينفعها إلا واحد يعرف كيف يهتم بمظهره. لذلك، عندما خرجت نرجس مع عبد الرحيم فى طريقهما لإعادة العلاقات، بحجة السلام على الخال العائد من السفر، انتظر البهى عثمان حتى ابتعدا، وقال بصوت مسموع:

«هئ: ابقى تعالى شخ على قبرى».

جلست نرجس وعبد الرحيم والتمت العائلة كلها.

وقالت البنت الصغيرة:

«أنت مش بتيجى ليه يا عمو؟».

عبد الرحيم ربت على ظهرها وهو ساكت. ودخل الأوسطى عباس بعد أن انتهى من صلاة العشاء فى الحجرة الداخلية، وقالت أم أفكار:

«الحاج عباس، أخويا وخال العروسة».

قالت نرجس:

«يا ألف مرحب» .

وأضافت أم أفكار :

«أم عبد الله ، أخت سى عبد الرحيم ، العريس» .

وجلس الأوسطى على الكنبة وربّع قدميه ، ومال ناحيتهما بجلبابه الأبيض وعلبة السجاير المارلبورو واضحة فى جيبه العلوى ، وابتسم :

«يا هلا بيكم» .

كان الكلام قليلاً أثناء شرب الشاى ، وعندما انتهوا منه صمتوا تمامًا ، وأم أفكار غابت وعادت بتفاحة قسمتها بالسكين وأعطت نصفها لنرجس ونصفها لعبد الرحيم وهى تقول :

«على لسانى ولا تنسانى ، آخر واحدة والنبى» .

أكل عبد الرحيم نصيبه ، وبعد أن حمد ربنا انتبه لصوت نرجس وهى تمسح أسنانها القوية البيضاء وتقول :

«دى طعمها جاز يا أولاد» .

ومدت يدها إلى أم العروس التى تناولت التفاحة وقربتها من أنفها :

«أه والنبى ، ريحتها جاز بصحيح ، يمكن من السكينة» .

وقال خال العروس :

«أمال أنت يا سى عبده ، أكلتها إزاى؟»

وعبد الرحيم ابتسم وقال :

«أنا افتكرت أن التفاح طعمه كده» .

وضحكوا جميعًا.

وأفكار قالت له وهو يخرج وراء أخته:

«يعنى لازم تعرفهم أنك كمان، عمرك ما أكلت تفاح؟»

وعبد الرحيم قال:

«أنا باهزّر».

فى اليوم التالى دخل على نرجس والبهى عثمان.

قعد على الكنبة وقال:

«مش أنا طلقت أفكار».

«يا مصيبتى».

«آه والنبى».

وابتسم.

فى الحوش الواسع لمصلحة البوستة العمومية، كان دوس باشا يقف صباحًا بقامته القصيرة الممتلئة، يده اليسرى فى جيب سترته (البليزر) الزرقاء، واليمنى مرتفعة بالسيجار الغليظ، بينما وقف على مقربة منه چنرال إنجليزى مع عدد آخر من الضباط فى ثيابهم العسكرية، وارتفعت فى أركان هذا الحوش الواسع تلال من الأكياس والطرود المختومة والرسائل الواردة باسم الحلفاء.

كان الجمع شاخصًا إلى مصعد البضائع الحديدى الكبير، المعطل بين الدور الأرضى والأول، فى انتظار رجال الإطفاء الذين يعتلونه بخوذاتهم النحاسية اللامعة ويعملون على تشغيله.

كان الچنرال يقف بالشورت الطويل والقلشين ويداه معقودتان وراء ظهره، بينما كان دوس باشا، مدير «البوستة» العمومية، ينفث دخان سيجاره البنى الغليظ، بقدر واضح من الخمول والتأفف، حين تحرك المصعد فجأة إلى أعلى، ثم توقف، وبدأ يهبط.

كان مصعد البضائع هذا من طبقتين. وله باب واحد جرّار. عندما جذبه السعاة ظهرت فى الطبقة الأولى منه ورقة مفتوحة عليها بقايا طعام، وبطانية مكومة.

فى الطبقة العليا كان عبد الرحيم نائما على ظهره وهو يضع ساقًا على ساق، وقد خلع ثيابه التحتية كلها. وامرأة صغيرة مصبوغة الوجه تجلس مذعورة عند قدميه، وفوق شعرها المنكوش «كاب» عسكرى عليه تاج صاحبة الجلالة الملكة.

ظل الچنرال صامتًا دون أن يدلى بأى تصريح، أما دوس باشا فقد تطلع إلى ساقى الخفير النائم والمرأة الجالسة وهو يلامس طرف المنديل القرمزى فى جيب السترة العلوى، ثم قطع السكون بأن همس لأحد معاونيه الذى شخط فى المرأة التى قامت نصف قومة، وراحت تبحث بين ساقى عبدالرحيم العاريتين حتى عثرت على الحذاء والحقيبة، ودلت ساقيها وقفزت. وتبعتها زجاجة خمر فارغة، سقطت على الأرض الخشبية وتدحرجت حتى استقرت دون أن تنكسر.

أرادت المرأة أن تنصرف ولكن أحد الضباط مد يده وانتزع «الكاب» مع شعرها المنكوش، الأمر الذى دفعها إلى الصراخ، ودفع عبد الرحيم إلى القلق فى نومته، فاستدار وأعطاهم مؤخرته المكشوفة، وثنى ذراعه تحت رأسه، وتردد ما يشبه الشخير فى الطبقة العلوية من المصعد.

وتقدم الضابط من الجنرال وأدى التحية العسكرية، مادا يده بالكاب المطوى.

لم يعلق الچنرال بشىء أو يتناول الكاب، ولكنه رمق دوس باشا بجانب عينه وغادر المكان الذى لم يلبث أن خلا من العسكريين الذين أقلتهم ثلاث من عربات الجيب المكشوفة، كانت واقفة عند المطافىء.

أشار الباشا إلى المرأة بأن تنصرف. فراحت تجرى وهى تحمل الحذاء فى يد والحقيبة فى اليد الأخرى، واختفت فى شارع صندوق الدين المجاور.

بدأت محاولات عدة، أمكن بعدها إقلاق عبد الرحيم فانقلب على ظهره وتمطى، واستراح على جنبه القريب وهو يريد أن يطوى ذراعه تحت رأسه، ثم انتبه قليلا، ورفع نصفه الأعلى معتمداً على يده. ظل يتأمل فيهم بعينيه المحمرتين وبدا كأنه أدرك حقيقة الموقف. وبذل جهداً كبيراً فى ارتداء ثيابه وهو قاعد تحت السقف الحديدى المنخفض، ولكنه رفض النزول. استقر فى مكانه حتى صدر قرار وقفه عن العمل قبل أذان الظهر بقليل. حينئذ غادر المصعد والمصلحة كلها، بعد أن بحث عن البهى عثمان فى قلم السفريات ولم يجده، لأن البهى ظل يتفرج مع الآخرين، وهو مختبىء طول الوقت وراء أكياس الطرود، يراقب كل ما حدث.

عبد الرحيم ركب الترام ونزل فى طريق النيل، وفى فضل الله عثمان

أخبر أخته نرجس أنهم أوقفوه عن العمل ولابد أن يرجع إلى البلد. وصعد إلى حجرته فوق السطح ونرجس طلعت وراءه وسألته:

«وقفوك ليه يا عبد الرحيم؟»

«مش عارف».

وعادت تنزل وراءه وتسأله:

«حتركب قطر كام يا عبد الرحيم؟»

«قطر تلاته».

وتبعته فى فضل الله عثمان وهى تصيح:

«سلم على أمك، وخالك عبد العزيز، وستك عزيزة يا وله».

ونزل عبد الرحيم من القطار. اتجه إلى مدخل البلد وهو يحمل حقيبته الخشبية. ومشى عند شونة القمح. وسمع صفارة وابور الطحين المتقطعة. ودخل من باب الدار.

صاحت الجدة عزيزة وهى تهرول بجرمها الصغير المائل:

«عبد الرحيم جه يا هانم».

وجاءت هانم تجرى:

«يا عين أمك. أنت جاى لوحدك؟»

«أيوه».

«أختك عامله إيه؟»

«بخير».

«وعيالها؟»

«حلوين».

وقال خاله عبد العزيز أبو شنب وهو جالس على الحصيرة العريضة بين القاعة والزريبة:

«إيه اللى رجعك؟»

«أخذت أجازة».

وزام الخال:

«أجازة؟»

«أيوه».

«أنت لحقت؟»

وقام واقفا باللباس الذى يكشف عن اعوجاج ساقيه، وبصق بجوار الزير. ودخل الزريبة.

اتجه عبد الرحيم إلى القاعة المعتمة، وطلع فوق المصطبة الكبيرة. قلع بدلة المصلحة الصفراء، وألقى بها على ظهر الفرن العريض المجاور للباب، ولبس الجلباب، وكبس الطاقية فى دماغه، وغادر متجها إلى الدكاكين. وقعد مع عبد السميع فى قهوة اللبودى وطلب الشاى.

ما إن عاد عبد الرحيم إلى العمل بعد قيام الثورة حتى تنقل بين شبابيك بعض المكاتب الفرعية، أحيانا يبيع الطوابع والاستمارات، أو يمسك دفتر التسجيل، أو يصرف الحوالات والمعاشات أو غيرها من الأعمال، وهو الأمر الذى عدَّه ترقية حقيقية، خصوصا وهو يقارن نفسه بالبهى عثمان الذى ظل يسوق الموتوسيكل ويجمع الخطابات من الصناديق المعلقة فى شوارع مصر.

فى البداية، لم يلفت نظره فى إنشراح، أثناء ترددها على المكتب، إلا ضخامة معاشها الذى يعادل ثلاثة أضعاف راتبه الشهرى تقريبًا. وعندما كان يفتح كشوف الصرف كانت عيناه تلتقطان، فوراً، هذا الرقم الكبير من بين صفوف الأرقام الصغيرة المتوالية والتى تمتلىء بها الأوراق. ثم لاحظ أنها لا تأتى أيام الزحمة، إذ تتكدس الأرامل والعجائز واليتامى والمرضى داخل صالة المكتب وحتى الرصيف الخارجى المطل على الميدان. وكان يعذرها وهو يتطلع إلى الجموع الحزينة الواقفة فى صبر منذ طلوع الشمس وحتى نهاية اليوم. يومًا وراء الآخر، فى هذه الأوقات، كان يلاحظ أنه والعاملين فى المكتب يتحدثون فى همس، أما الخلق الغلابة فإنهم، رغم الزحام الرهيب والتدافع، لم يكن يصدر عنهم أدنى صوت. كان يشعر أن الدنيا من حوله صارت فى حال من التعاسة لا أول لها ولا آخر.

كانت إنشراح تتأخر أسبوعًا أو أكثر حتى تهدأ الأحوال، الأمر الذى جعله غير قادر على إغلاق حساباته إلا متأخراً، كلما أراد أن يسلم الكشوف، أو يحاسب الخزينة، لكى يرتاح فترة قبل معاش الشهر القادم أو يأخذ عدة أيام أجازة ويسافر البلد، هكذا وجد نفسه مشغولاً بها دون أن يعرفها. عبد الرحيم يتذكر ذلك ويتأكد أن ما حدث بينهما بعد ذلك كان

مكتوبًا من الأول، ويزداد إيمانه بالمثل القائل إن الزواج، فعلاً، قسمة ونصيب.

كانت تتقدم داخل المكتب شبه الخالى بقامتها القصيرة والممتلئة قليلاً. ترتدى فستانًا من قطعتين، وتلف عنقها بمنديل خيف أصفر، وتعلق على صدرها حلية نحاسية لامعة، برفقتها صبى وبنتان توءمان، كل واحدة لها ضفيرتان، تخرج بطاقتها من الحقيبة وتدفعها بين قضبان البوابة المعدنية المفتوحة، وتتكىء بمرفقها على الحاجز الخشبى القديم. وبينما هو يقيد رقم البطاقة، كان يشم رائحة عطرها القوى والموّجه إلى أنفه مباشرة. ويعكس الأوراق ويديرها أمامها وهو يشير بإصبعه إلى مكان التوقيع. ويلاحظ أنها تلبس الساعة فى يدها اليمنى، وأن ملامح وجهها الكبير الطرى تجعله محترما جدًا. كانت تقول: «متشكرة» وهى تضع النقود فى حقيبتها دون أن تبتسم أو تحصيها. الشىء الذى أربكه أنها اعتادت، قبل أن تنصرف، أن تلقى عليه نظرة معناها الواضح هو: «على فكرة، أنا فهماك كويس قوى».

عبد الرحيم يذكر أن أول كلام بدأ بينهما كان حول عدم صرف المعاش فى وقته. قالت إنها تريد أن تصرفه مبكرًا. صحيح أنها مستورة والحمد لله، لكن كل إنسان عنده مسئوليات. وأضافت فى ضيق أن زحمة المكتب هى السبب: «مع أنى ساكنة قريب».

«هنا؟»

«فوق قهوة عباس».

«دى على البحر على طول».

«آه . أنا باشوفك من البلكونة وأنت راجع» .

وأضافت ، باستياء ، أنه ممكن أن يمر عليها بالمعاش وينادى من تحت أو يطلع يأخذ قهوة .

عندما حان صرف المعاش التالى أخذه عبد الرحيم واتجه إلى هناك . ألحت عليه فى معاودة الحضور ، وتوطدت العلاقة بينهما . وصار يحمل أكياس الفاكهة من أجل الولد والبنتين ، فى البداية أقلقه صمتهما ثم اكتشف أن ذلك كان نوعًا من الأدب ، كما كانت تدهشه مسألة أنهم ينامون فى موعد ثابت هو التاسعة . وقد رآهم ، قبل أن يتوجهوا إلى حجرتهم ، يقبلون أمهم ويقولون : «تصبحى على خير يا ماما . تصبح على خير يا عمو» .

عبد الرحيم تعلم أن يذهب بعد موعد نومهم . أعجبته الشقة وعفشها الغالى والمنفضة التى من ريش النعام والبلكونة الصغيرة التى تطل على النيل ، وكذلك المرحاض الإفرنجى والبوتاجاز والسخان ، وارتداؤها للأرواب سواء كانت خفيفة أو ثقيلة ، مع حرصها على لم طوقها لكى تدارى صدرها العريان وفخذيها الممتلئتين والمجعدتين قليلاً تحت قميصها القصير الأحمر . كانت تدخن أكثر منه ، وتقوم وقد تركت أطراف الروب ينفرج بعيدًا ، لكى تفرغ المطفأة الزجاجية من السجاير التى صبغت أعقابها بالروج الأحمر . وعندما سألها مرة عن المرحوم مالت عليه وانهمرت دموعها ، وضمها إلى صدره وربت على ظهرها الطرى وهو يقول إنه لم يقصد أى شىء ، وهى همست : «بلاش نقلب الماضى يا عبد الرحيم» .

وعبد الرحيم أراد أن يعريّها ولكنها رفضت :

«علشان خاطرى».

«لا يمكن».

وعندما عرض عليها الزواج استغرقت فى التفكير حتى انتهت من السيجارة، ثم تنهدت ووافقت.

كانت قد ذهبت بالأولاد عند شقيتها فى روض الفرج.

وبعدما ضاجعها أول مرة وأراد أن يقوم عنها احتجزته وهى تهمس:

«لأ».

ولمح فجوة إبطها الدكناء وهى تقلب ذراعها البيضاء العارية على ملاءة السرير، وتسرب أصابعها تحت المخدة وتسحب الفوطة الصغيرة الناعمة. دستها بينهما وأمسكت بها منبت عضوه وتركته يتراجع به بينما الفوطة تحوطه برفق وتجففه تمامًا. أقبلت على جسمه كله، دغدغته وهو واقف بينما هى جالسة وشجعته على أن يأخذ مكانها وعلى ولوج كل شىء فيها، فى قلب السرير وعلى حافته وفى المطبخ وهى تعد الشاى وعلى الكراسى والسجادة وبينما هى منحنية على سور البلكونة تدخن السيجارة وتراقب النهر فى صمت الليل.

سابع يوم رفضت الاستمرار فى شقتها. أرادت الذهاب إلى شقته.

«إزاى؟»

«لازم».

«ما تخلينا هنا».

«ليه؟»

«هنا أحسن» .

«هنا ما ينفعش يا عبد الرحيم» .

أعدت حقيبة متوسطة وقالت :

«شوية غيارات» .

«خلينا بعيد عن نرجس» .

«شويه هنا وشوية هناك يا أخى» .

نرجس عرفت واستغرقت فى التفكير والبحث عن طريقة للحل .

والبهى عثمان أصر على إخطار أمه هانم وخاله عبد العزيز :

«لو سكتنا ، البلد كلها حاتقول إننا اللى جوزناه واحدة مطلقة» .

عندما وصل الخبر إلى البلد ضحك خاله عبد العزيز أبو شنب ونظر بعينه الحولاء إلى شقيقته هانم وهو فى منتهى القرف . وهانم أصرت على السفر إلى مصر وتطليق هذه المرأة وضرب عبد الرحيم بالمداس على عملته السوداء . ثم أرسلت إلى البهى أفندى عثمان توكله بإنهاء هذا الموضوع بمعرفته . والبهى قرأ الخطاب وهو قاعد على الكنبة وقال : «هئ» .

ومع أن نرجس حرمت بيته على نفسها ظل عبد الرحيم يمر ويطل كل يوم ولو من فتحة الباب . وحين تشير إلى الموضوع يضحك مثل عادته . وإذا تأخر أكثر من يومين ترسل عبد الله لكى يتسقّط أخباره من بعيد لبعيد . وإنشراح عادت ، من زمان ، إلى قمصانها الحريرية القصيرة تحت الأرواب التى كانت تطويها على ظهر المقعد ، كما عادت إلى لم أطرافها لكى تدارى صدرها العريان وفخذيها الممتلئتين والمجعدتين قليلاً وهى

جالسة أمامه تدخن السيجارة. أعدت الحجرة الصغيرة للولد والبنتين وأتت بهم من روض الفرج. ويوم أجازتهم تأخذهم إلى الشقة القديمة لكى يستحموا بماء السخّان ويغيروا ثيابهم ويلعبوا بالأتارى فى حين تنتف هى وجهها وجسمها بالحلاوة، وتصبغ شعرها، تستحم وتدعك كعبيها جيداً وتعود آخر النهار. وكان عبد الرحيم يلتقى بها فى الطرقة الطويلة أو أية زاوية من زاويا الحوش شبه المعتم، أو على باب المرحاض، ويصاب بالرهبة إذ تبدو أشبه بامرأة أخرى. وإذا مر من خلفها أثاء جلوسها فى الحجرة يلاحظ منابت الشعر، فى قفاها ورقبتها، بيضاء وغير مصبوغة. وإذا نامت تشخر لكن بهدوء. وتحتفظ بحبوب دواء مع علبة السجاير والولاعة فى جيوب الروب. ويطول سهره عند نرجس. ونرجس لا تكف عن الكلام فى الموضوع:

«دى بتشرب دخان».

وهو يضحك:

«وأنا غرمان إيه؟ دى معاشها كبير».

والبهى عثمان يلتفت:

«يا نهار أسود، هى مابلغتش المعاشات عن الجواز؟»

عبد الرحيم يتطلع وهو ساكت.

«كان لازم تبلغ من تانى يوم على طول».

ونرجس تسأل:

«الكلام ده بجد يا ولاد؟»

وعبد الرحيم يوضح :

«أيوه، علشان يقطعوه».

«يعنى أنت عارف؟»

«أنا سهى علىّ خالص».

والبهى عثمان يعلق :

«دى فيها سجن».

«طيب وأنا مالى؟»

«مالك؟ مش جوزها يا وله؟»

والبهى يوضح :

«يا ريته كان جوزها وبس، ده هو اللى بيصرف المعاشات».

ويبتسم فى أسى :

«ساعتها الحكومة ح تقول إن حاميها حراميها».

«وبعدين يا عبد الرحيم؟»

«يا ستى لا بعدين ولا قبلين. أما أشوفها أقول لها».

«تقول لها؟ طب اتنيل على خيبتك السودة».

عبد الرحيم رجع آخر الليل، وخاطب إنشراح، وهو يدق مسماراً خارج الحجرة، قائلاً إن «واحد صاحبه اسمه أسامة أفندى نبهه أنها لازم تبلغ المعاشات بالزواج». وإنشراح لم ترد عليه حتى انتهى من دق المسمار ودخل.

«صاحبك ده فى القهوة، ولا معاك فى الشغل؟»

«معايا فى الشغل».

«أمال يعنى ما قلتش لما رجعت بالنهار؟»

«راح عن بالى خالص».

إنشراح قالت إنها لا يمكن أن توافق على ترك المعاش:

وعبد الرحيم انحنى. وضع الشاكوش تحت السرير واعتدل. جلس أمامها.

وهى لمت الروب على ساقيها العاريتين.

أشعلت سيجارة وقالت:

«لا يمكن. ده حق العيال. أمال يتربوا إزاى؟»

وأشعلت سيجارةً وفكرت:

«إحنا غلطنا يا عبد الرحيم ولازم نصلح غلطتنا».

«إزاى؟»

«نتطلق».

«بقى الناس تصلح غلطتها بالجواز، وإحنا نصلحها بالطلاق؟»

رافقته إلى المأذون وعادت إلى شقتها.

بدأت شقتها تغلق بالأيام. يظل يذهب ويأتى على شاطىء النهر وعيناه على باب البلكونة والشباك المقفل. أحيانا يلاحظ ما يشبه خيالاً لرجل آخر

يتحرك وراء الشيش، ويظل كامنا فى انتظار خروجه. كان يستعيد تفاصيل ما جرى بينهما وهو فى حالة هياج دائم. وعافت نفسه الأكل ولم يعد ينام، ويفكر أنه أيام خطبته لأفكار لم يتعب هكذا، ولا حتى أيام حبِّه لبسيمة الموضة، مع أن بسيمة كانت أجمل ألف مرة، وصغيرة. ولما تذكر بسيمة شعر أنه يكره إنشراح من قلبه ولكنه يريد بأية وسيلة أن يراها مرة أخرى.

استقبلته بوجوم فى فتحة الباب وأخبرته أن الأولاد نائمون. ترجاها لأنه يريدها فى كلام مهم، وجلس أمامها وهو يلم جلبابه المكوى فى حجره:

«كلمينى بصراحة».

التفتت إليه، قال:

«أنا زعلتك فى حاجة؟»

«مش حكاية زعل».

وانهمرت دموعها:

وضع يده على ركبتها وهو راغب فيها جداً.

«لو سمحت يا عبد الرحيم».

«يعنى. أسيبك وأنت بتعيطى؟»

«يا أخى اسمع الكلام».

«علشان خاطرى».

«أنت اتجننت؟»

كان قد هبط أمامها على ركبتيه وهو يضع يديه على وركيها، وحبسها ببطنه فى المقعد الكبير: «أنا ما قدرش استغنى عنك أبدًا». ودس يده تحت الثوب وباعد بين فخذيها عنوة وهى تقاوم بكل قواها وتلهث: «العيال». ولكن عبد الرحيم كتم أنفاسها بشفتيه وشلها تماما. وحملها جالسة وطرحها على السرير وهو يقبض على شعرها ويعرى نفسه حتى تمكن منها. كان يطعنها بقوة ويلاحظها وهى تدير وجهها وتمد يدها، كل فترة، وتنشغل بالتقاط الشعيرات التى كانت تدخل فمها مع لهاثها المسموع. وعندما فرغ ظل مسترخيًا فيها حتى هدأ تمامًا، ونزل.

لبس اللباس وعدل الجلباب وهو واقف. ورآها جالسة على السرير، وقد انكفأت على نفسها وباعدت بين فخذيها بلحمهما الأبيض المجعد، تبكى، والدموع تسح وتذيب الكحل عن جفونها، وترسم خطين فى لون الحبر على بودرة خديها المهدّلين.

كانت تجفف عينيها الكابيتين بطرف قميصها الحريرى المرفوع، بينما الروب معلق فى كتفيها ومرمى وراءها، على المخدة المبلولة.

آخر النهار، البهى عثمان حلق ذقنه مرة أخرى ولبس البدلة والكرافتة. ونرجس لبست هى والأولاد، وذهبوا ليحضروا الفرح الذى أقيم فى ساحة القرية التى تقع تحت سفح الهرم الكبير.

زحمة هائلة وزغاريد وطبل ومزمار بلدى وتحطيب ورقص خيول

وأولاد ونساء ورجال. مولد كبير. ابتسم له البهى عثمان بينما استغربت نرجس وقالت:

«يخيبك يا عبد الرحيم».

كانت سعاد شقيقة أسامة أفندى زميل عبد الرحيم فى المصلحة. ونرجس لاحظت أنها تبدو نحيلة أكثر من المرّة التى رأتها فيها عندما جاءت مع عبد الرحيم لخطبتها. كان الخال عبد العزيز قد اختفى من البلد ورفضت أمه هانم أن تترك الجدة عزيزة فى مرضها لتحضر الفرح. وكان عبد الرحيم قد كف عن ارتداء الجلباب خارج البيت واعتاد القميص والبنطلون. وأدرك أن مرض جدته، هى التى لم تمرض أبدًا، يعنى أنها سوف تموت. وإذا فعلتها وماتت فإن مسألة زواجه سوف تؤجل لمدة سنة على الأقل. لذلك فضل الانتهاء منه، خصوصًا أن الحاج مرتجى وعده بأن لا يكلفه بأية مصاريف. وكان وجه سعاد المطلى بالأبيض والأحمر جميلاً، وهى قاعدة على الدكة فى فستان الزفاف تتفرج على الرقص وتهز قدميها وفمها مفتوح طول الوقت. وعبد الرحيم إلى جوارها فى البدلة والكرافتة ينفض رماد السيجارة عن حجره بينما يده الأخرى تبعد أيدى الأولاد الذين يقفون وراءهما على الدكة ويتكئون على دماغه وكتفيه.

وعندما استعدوا لركوب العربة الميكروباص المخصوصة، فى نهاية السهرة، جلست نرجس وعبد الرحيم وسعاد على الكنبة الوسطى، والبهى إلى جوار السائق، بينما جلس الولد عبد الله وأخوته على الكنبة الخلفية. وجاء الحاج مرتجى والد العروس وهو يحمل ملاءة سرير مربوطة على ثياب ابنته قذفها على شبكة العربة وثبتها، ووقف أمامهم بشاربه الطويل ورأسه المعصوب. كانت العائلة كلها وراءه، ولاحظت نرجس أنه

يقف وأصابع قدميه فى لون الطين وهى طالعة من الشبشب البلاستيك الأخضر. وصاح بصوت عال وهو يمسك ذيل الجلباب ويعرى ساقيه النحيلتين:

«مع ألف سلامة، اتوكل يا أسطى عبد الفتاح».

واستدارت العربة لتغادر الساحة التى يطل عليها الهرم الكبير، تصاحبها زفة هائلة من الأولاد، بينما الأسطى عبد الفتاح يضغط على آلة التنبيه باستمرار.

وحقيقة الأمر أن سعاد التى هى نحيلة العود كانت قليلة الكلام. وكانت عادتها التى عرفت عنها أن تذهب وتجيء فى جلباب البيت وهى رافعة أنفها الواضح إلى أعلى، مما أضفى عليها شيئًا من الشموخ، وجعل نرجس تشعر ناحيتها بالتوجس ولا تعرف كيف تتعامل معها.

ومع أن كلامها، إذا تكلمت، كان يبدو عاديًا فإن نرجس كانت تسمعها وتسكت لأنها تجده من الكلام الذى لا يساعد على الأخذ والرد. كان عبدالرحيم يأتى بها لكى يقضى السهرة معهم. حينئذ تجلس متربعة على طرف الكنبة وتتابعهم فى صمت. وكانت الدهشة تبدو فى عينيها إذا نظرت إلى عبدالله الذى صار شابًا الآن. وإذا تكلم عبد الرحيم عن والدها الحاج مرتجى باعتباره أول من فتح دكانًا فى هضبة الهرم: «قبل سعاد ما تتولد»، كانت تعلق:

«قدح الفول المدشوش كان بصاغ».

وتسكت.

وكان هذا من نوع الكلام الذى تقصده نرجس وتتحدث عنه مع البهى.

أما البهى عثمان فقد كان يفتح فمه، تظهر على وجهه ابتسامة خفيفة وهو يعبث بالمسبحة ويقول فى سره:

«الله. اشمعنى الفول المدشوش يعنى؟»

وفى كل سهرة كان عبد الرحيم يتحدث عن الكنز الموجود فى المقبرة الفرعونية التى بنى عليها الحاج مرتجى بيته. وكانت نرجس، يوم الخطوبة، قد دخلت هذا البيت الذى بنى من طبقة واحدة ووجدت حجراته كبيرة، ومعظمها يفضى إلى بعضه بعضًا، وأرضها من دون بلاط. وكانت دورة المياه واسعة ويربون فيها فراخًا وإوزًا أبيض، وجديًا أحمر، بينما كانت فتحة المرحاض فى منتصف الحجرة إلى درجة أن نرجس خجلت أن تشلح وتقضى حاجتها أمام هذه المخلوقات الحية. وكان عبد الرحيم يقول لها:

«أمال إحنا بنقول إيه من الصبح؟»

ويشرح لها كيف أن الحاج مرتجى عمل فتحة المرحاض فوق البئر التى تصل إلى سرداب المقبرة حتى لا يكتشفها أحد: «كل البيوت كده». ويبتسم لها ويسألها إن كانت تذكر الرجل الذى كان يرتدى العباءة.

«فين؟».

«فى الفرح».

«فرحك أنت وسعاد؟».

«أيوه».

«جرى إيه يا عبد الرحيم؟ ده بقى له سنة دلوقت».

والبهى عثمان يقول:

«الراجل التخين؟» .

«لأ . الأقرع» .

«أقرع؟» .

«أيوه يا أخى . اللى كان جنب الحاج مرتجى على طول» .

وتعلق سعاد :

«أبو البت فريال» .

والبهى ينظر إليها يلتفت إلى عبد الرحيم :

«ماله؟»

«أهو الراجل ده لقى فى المقبرة اللى تحت بيته حتة رخام : «قد كده» ، ويباعد بين ذراعيه : «وحواليها فرخة وسبع كتاكيت دهب» .

«يا نهار أسود» .

وعبد الرحيم يضحك :

«أمال أنت فاهم إيه؟»

«والحاج مرتجى؟»

يتنهد عبد الرحيم . يقول إنهم يبحثون عن حل لأن البئر التى فى مقبرتهم عميقة : «وكل ما ينزلوا فيه اللمبة تنطفى» .

وتعلق سعاد :

«قبل الحصان ما يموت» .

وكـان مـثل هـذا الكلام هو الـذى يزيد فى قـلق نرجس من ناحـيـتـهـا . وتقول :

«الحصان؟»

«آه . فيه ناس بتلاقى فرخه ، وبدل الكتاكيت بيض» .

وتلتفت نرجس وتسألها :

«دهب برضه؟»

وسعاد تجذب أطراف الجلباب حتى أصابع قدميها :

«لكن لازم حبال» .

وكان هذا يضاعف من غضب نرجس ويقرفها .

كـانت أم سعـاد قد مـاتت وهى صـغيـرة وتولت الابنة الكبـرى عفـاف تربيتـهـا مع أشـقـائها الذين تربـوا من صـغـرهـم تحت الهـرم يسـترزقـون من الأجـانـب ويجيـدون لغـاتهم . فى ذلك الوقت كـان الحـاج مـرتجى يمتلك حصـانًا مزينًا بالورود الحريرية الملونة يؤجرونه للسياح بالساعة . الحصـان مات والمعلم بكاه وتقبل فيه العزاء . أما الأولاد فقد توزعوا فى أكثر من مكان . ولدان فى إيطاليا وولد يسمعون أنه فى ليبيا وأحيانا يسمعون أنه فى العـراق . أسامـة أفندى هـو الوحيـد الذى توظف بـالابتدائية فى مـصلحـة البـوستة العـمومـية ، وهو يقـضى مـعظم الأيام مسـافرًا فى القطارات مع أكـياس البـريد من مكان إلى مكان . وكـانت عفـاف أرملة ، ولديهـا أولاد صغار تعيش معهم عند أبيها الحاج مرتجى الذى أصابه المرض الآن ولكن فى قدميه فقط . كل يوم يحملونه ويسندون ظهره إلى الجدار القصير حيث يجلس فى مواجهة الهرم الكبير الذى يشغل ثلاثة أرباع الدنيا من أمامه وهو

يتكىء بمرفقه على سرج الحصان الذى رفض أن يفرط فيه، والربع الباقى يكشف له قدرا معقولاً من السماء والبيوت الواطئة المنحدرة وأجولة العدس والفاصوليا والفول المدشوش المرصوصة على عتبة دكانه الصغير. كان يشعر أنه أكمل رسالته بزواج البنت الصغرى من عبد الرحيم أفندى. ويمد قدميه المريضتين أمامه ويدخن الجوزة، ويتناول طعامه، ويشخط فى العيال الذين لا يعيرونه اهتمامًا بسبب عدم قدرته على الوقوف وحده والجرى وراءهم. هكذا يقضى يومه حتى ينام على روحه ويتهدل شاربه. ويميل دماغه على صدره أو كتفه ويحملونه إلى داخل البيت. والمعلم عندما ينام يصبح ثقيلاً كالقتيل. لم يكن فى وسع عفاف أن تدخله دون معاونة من أحد. ولهذا كانت كثيرا ما تضطر إلى وضع الغطاء عليه وتركه فى مكانه حتى يستيقظ فى اليوم التالى ويواصل قعدته دون أن يغضب، أو يعلق بأى كلام.

وسعاد تتردد كثيراً على بيت أبيها. يعود عبد الرحيم من العمل فلا يجدها ويعرف أنها هناك. تمضى عدة أيام فى رعاية أبناء شقيقتها عفاف المشغولة ما بين أولادها والحاج مرتجى والدكان حتى عدمت صحتها تمامًا.

لم تكن سعاد تعود وحدها أبدًا حتى يذهب ويأتى بها.

فى كل مرة كانت تأتى ومعها شىء من الفول أو الأرز والعدس وبيض الفراخ. كما كانت تأتى بولد أو ولدين من أبناء شقيقتها. ونرجس تطل عليهم وتلاحظ أن البيت مستور، وأن سعاد لم تحبل بعد. وتسألها:

«أبوك عامل إيه يا سعاد؟».

«الحمد لله. لكن بيموت».

ومرت أيام قليلة ومات.

ذهبت سعاد للوقوف بنفسها فى الدكان. وتفرغت عفاف لرعاية البيت والعيال وأسامة أفندى اختفى تمامًا فى عربات البوستة الملحقة بالقطارات.

اعتاد عبد الرحيم أن يتردد عليهم ويراها حافية القدمين وترتدى بنطلون بيجامة رجاليًا تحت الجلباب. يقضى معهم ليلة أو ليلتين، يضاجعها أينما تيسّر وينصرف.

واعتادت هى أن تأتى إلى فضل الله عثمان كل جمعة أو جمعتين، تأخذ شيئًا من ثيابها وتنصرف.

مع الوقت أخذت أغراضها كلها وتوقفت.



٤

كانت الدار، كما أطلق عليها عبد الرحيم وأهله، هى الحوش الأرضى لأحد البيوت الحجرية الكبيرة التى بنيت فى أوائل القرن، وكان بابه الخشبى قد فتحه الحاج عباس الكبير عنوة أثناء الحرب العالمية الثانية، حيث يمكنه اصطحاب جماعته واختراق فضل الله عثمان واللجوء إلى شاطىء النهر إذا ما اشتدت الغارة. أما طبقات البيت التى يشغلها بقية السكان فقد كان لها مدخل آخر رئيسى، فى الشارع الخلفى.

كان لهذا الحوش ثلاثة مناور مفتوحة على السماء. وكان عبد الرحيم قد تسلمه خاليًا إلا من حجرة واسعة بابها على يسار الممر، لها شباك طويل بقضبان. أما الممر فهو طويل وفى نهايته مساحات خالية تصل بينها طرقات معتدلة أو مائلة، وفى عمق المكان مرحاض منخفض.

خلال هذه السنوات كان عبد الرحيم قد أقام مجموعة من السقوف الثابتة والمتحركة، والسدود التى جعلت من المكان دارًا ريفية لا يعرفها إلا أهلها. هذه الفتحات متروكة لضوء الشمس إذا دخل الشتاء. وهذه الكوى البحرية إحداها موجهة إلى حجرة الأم، وأخرى إلى الطرقة الطويلة المواجهة للمدخل المفتوح على فضل الله عثمان حيث سهرات الصيف الطويلة، وكان عبد الرحيم قد بنى مرحاضًا جديدًا من الخشب الحبيبى بعلو ثلاث درجات من الطوب. كان يأتى بألواح الخشب القديمة من السوق

ويركنها من أجل مشاريعه الطارئة. أقام عشة فراخ لها باب من السلك، ومزودًا صغيرًا لجدى كان قد اشتراه قبل أحد الأعياد تلبية لرغبة والدته فى التضحية. وعندما جاءت دلال من البلد أعد لها مطبخًا به رفوف وله نافذة تطل على الزير الكبير الذى بنى له حاملاً مفتوحًا من الطوب والإسمنت ووضع تحته صفيحة سمنة خالية لتلقى نقاط الماء.

كانت الجدران ممتلئة بالمسامير الطويلة التى علقت عليها حبال البامية الجافة والفلفل الأحمر وحزم البصل والثوم. وكان الأستاذ عبد الله بن عثمان وهو ينتقل من مكان إلى آخر، فى سبيله للوصول إلى حجرة جدته الضائعة، ينحنى وهو يرفع حبال الغسيل الممتدة بين هذه المسامير المدقوقة. كما كانت هناك مشنات ممتلئة بأوراق الملوخية أو النعناع المقطوفة التى تركت لتجف. كما علقت مجموعة من المناخل الحرير والسلك وغربال قديم ومقاطف فيها بقايا خبز ودقيق وردَّة. وفى أحد الأركان ماجور عجين مقلوب كان يستخدم كمقعد، وتباعدت فى الجدران طاقات مسدودة وضعت فيها لمبات الجاز الكبيرة والسهارى المطفأة وعلب فارغة وأوراق مطوية أو ملفوفة ومربوطة بشرائط من قماش. وكان قد بنى مصطبة طويلة فى زاوية مستورة من آخر الحوش، وضع عليها حشية ومسندًا صغيرًا، يمكن استخدامها للقيلولة بعيدًا عن دوشة الراديو والأولاد. وكانت الأم الكبيرة هانم قد طلبت، حال وصولها، كانونا على مقربة من حجرتها الصغيرة ظلت تستخدمه حتى بدأ الأولاد يجلسون عليه ويتبرزون أو يبولون. وبين حقبة وأخرى، كان عبد الرحيم يخلط الإسمنت والرمل ويقوم برش الجدران التى يتساقط ملاطها عن كسور الدبش القديم الذى وضع كيفما اتفق، أو يضيف مجرى جديدًا إلى مجارى المياه المحفورة

جنب الجدران حيث تلتقى كلها فى مجرى واحد رئيسى يصب فى البالوعة المدورة فى ركن الدار .

توقف الأستاذ عند حجرة الجدة التى فى الناحية اليمنى . كانت خالية ومعتمة ، مشبعة برائحة خبزها المبلول . فراشها الصغير مرتب . وكليمها المفروش قديم وباهت ، وصندوق عرسها الخشبى بأحزمته النحاسية الصدئة المنقوشة فى ركنها الداخلى المعتم . كان يعرف أن خاله قد أعدها ، من زمان ، كمطبخ من أجل الاستعداد لزواجه من أفكار ، وهو الزواج الذى لم يتم . ثم هيأها لكى تستخدمها إنشراح لمبيت أولادها الثلاثة عندما فكر فى الزواج منها . كما احتفظت الحجرة بوضعها كمطبخ أثناء زواجه الثالث من سعاد والذى لم يستمر طويلاً . لقد تغيرت الدار تمامًا منذ مجىء أمه وزواجه من ابنة بلدهم دلال التى حملت بعد شهر وعدة أيام .

دلال تنام قبلهما .

إذا عاد عبد الرحيم مبكرًا تعمل لهما الشاى قبل أن تتركهما . ومهما كان الوقت الذى يعود فيه عبد الرحيم تنتبه لحركته وهو يفك اللفافة ويضع ما يأتى به فى الصحن وينادى : «قومى يامه» . والجدة تجلس معه فى مقدمة الحوش وفضل الله عثمان مفتوح أمامهما عن آخره . بين حين وآخر تمد يدها إلى الصحن وتتناول فتفوتة من التشكيلة التى اعتاد أن يأتى بها : قطعة صغيرة من الجبنة الرومية أو البيضاء أو قطعة من الحلاوة الطحينية ، فضلاً عن عدة زيتونات ، مرة خضراء ومرة سوداء . وتقضى هى السهرة فى مضغ كسرة خبز أو قطعة جبن فى حجم عقلة الإصبع وإذا حاولت مرة أن تلوك زيتونة بلثتها الخالية كانت تبلعها ببذرتها رغمًا عنها . ولذلك تابت عنه رغم حبها له . ولما كان يأتى لها بصنف جديد مثل قطعة من الجبن الشيدر أو

النستو أو الروكفور فإنه يلفت نظرها إلى ذلك ويطمئن إلى أنها لاحظت فارق الطعم بين هذه وتلك . ويتحدثان طول السهرة عن البلد أو العمدة عبد الرحمن ، والأرض أو نرجس ، أو أى شىء من الأشياء حتى يشقشق نور الفجر على فضل الله عثمان . ولما مات عبد الرحيم كان عبد الله بن البهى عثمان يشترى لها الأصناف ذاتها ، ويعطيها لدلال لكى ترتبها فى الصحن ، وتضعها فى مقدمة الحوش ، لأن الجدة ظلت تغادر حجرتها ليلاً وتجلس مكانها المعتاد ويمر عليها الوقت وتضحك وتقول : «الواد عبدالرحيم اتأخر» ، وترد عليها دلال التى تغالب النوم لكى تراقبها : «زمانه جاى» . وأحيانًا تمد يدها إلى جيب السيالة وتطمئن إلى الورقتين من فئة عشرة جنيهات اللتين كانت تحتفظ بهما فيها منذ سنوات طويلة ، من أجل تكاليف خرجتها عندما تموت : أجرة السيارة التى سوف تنقلها من مصر إلى البلد ، والكفن وأجرة المغسّلة والحانوتى والمعددة والليلة التى سوف يحييها الشيخ مصطفى الصفتى الصييت المعروف (وكان قد مات قبل أربعة وثلاثين عامًا) ، وكذلك مصاريف العشاء الذى سوف تعده نرجس للمعزين من أهالى فضل الله عثمان . ومع أن هذه السيالة التى تحفظ فيها بالورقتين كانت مشبوكة بدبوس فى الجلباب الأسود الداخلى الذى ترتديه تحت الجلباب الأسود الخارجى ، نجح عبد الرحيم قبل سنوات فى التسلل إلى حيث الدبوس واستولى على الورقتين الماليتين ووضع مكانهما ورقة كراس مسطرة . ودلال كانت تعرف لأنه كان يطلب منها ساعة غسيل الهدوم أن لا تخبر أمه بأوراق الكراس المطوية داخل السيالة ودلال من ناحيتها لم تكن تستغرب منه أى شىء بعدما رأته يربط أسنانه المريضة بخيط مثبت إلى الجدار بمسمار طويل ، يشعل سيجارة لكى يخدع نفسه ويقول لها كلمينى فى أى حاجة ، وتسأله هى : «أكلمك فى إيه يعنى؟» ويقول :

«يا ساتر عليكى، باقولك . . » ويجذب دماغه فجأة لتتدلى فى نهاية الخيط سنه الطويلة المسودة. لم تكن بينهما كلفة على الإطلاق؛ لقد بدأ بعد الزواج بشهور قليلة يترك أعضاءه عارية ويردد الألفاظ الخارجة أمامها وأمام أمه دون خجل. وفى شهور الصيف، والشتاء أيضًا تتجول دلال داخل الدار بجلباب على اللحم وتفاجأ به يلطمها على ردفيها ويزنقها فى أى ركن. كان يبرك عليها بجسده الثقيل، وهى تئن من طريقته فى فرك ثدييها، فيما هو يضحك ويحبسها بين ساقيه. ويلطم رحمها بقضيبه تلك اللطمات الحميمة المدربة. اعتادته كما اعتادت أذناها صوت ضراطه الذى كان يتردد أحيانًا فى أرجاء المكان.

«أعمل لك شاى تانى؟»

قال الأستاذ:

«متشكر قوى. أنا شوية وماشى».

قالت دلال إنها، كلما انقطع النور، افتكرت نفسها فى البلد، وإن عبدالرحيم، ربنا يرحمه ويسامحه، لو كان سمع كلامها وباع الأرض، أعطى لنرجس نصيبه، وبنى بنصيبه دارًا بدل الدار الكبيرة التى باعها برخص التراب، كانت أخذت العيال، وراحت عاشت هناك على قرشين المعاش، لكن: «آدى إحنا انقطعنا، لا أهل، ولا دار، ولا أرض، ولا بلد».

كان الولد عبد الله الصغير قد نام.

وكـان الأسـتـاذ يقف وسط الحـجـرة يتـأمل الصـورة المعلقـة، ويداه فى جيوب البنطلون، وقال:

«الأرض دى مكانها فين بالضبط؟»

«فى البلد يا سى عبد الله».

«جوه البلد يعنى؟»

دلال قـالت إنه لا توجـد غـيطان داخل البلد، الغـيطان كلهـا خـارج الزمـام، لما تنزل فى محطة القطار، تجد الناحية الثانية من السكة الحديد، كلها على مدى الشوف، مزروعة:

«أهى الأرض هناك».

«ومين اللى فيها دلوقت؟»

«إزاى يعنى؟»

«مين اللى مأجرها؟»

دلال قالت إن:

«اللى مأجرها؟»

كـان العمـدة عبـد الرحمـن، حطها فى كـرشه وكـتب حيازتهـا باسمه مع غيرهـا من الأراضى، ورجع قال إنه أجرها لواحد، الواحد مات من زمن، وعياله ركبوها من بعده وماتوا. وأضافت إن الله وحده هو الذى يعلم أن كانت عيال عياله هى التى تزرعها هذه الأيام أم أنهمْ أجروها لأحد آخر:

«آهى البركة فيك بقى».

الأستاذ عبد الله استمع لهذا الكلام، وأدرك سريعًا أنه مقبل على تجربة جديدة تمامًا. ثم أسعفته بديهته إلى الاقتناع بأنه لن يصل فى هذه القضية إلى أية نتيجة، ولكنه طبعًا سوف يقوم بواجبه باعتباره المسئول عن العائلة الآن وكبيرها، وتساءل عما إذا كان عليه أن يهيئهم نفسيًا لتقبل فشل موضوع الأرض الذى يعولون عليه كثيرًا، أم أن عليه أن يسكت، وعندما يأتى وقتها، يحلها ربنا؟ حينئذ جاء النور المقطوع فجأة وصاح سلامة من عند الباب:

«النور على قدوم الواردين».

وجلس.

عندما جاءت دلال بالشاى باعد ذراعيه على جانبى الكرسى وتساءل عما إذا كانت هناك أخبار جديدة. ولما لم يعلق أحد قال إنه لم يترك أحدًا يقابله دون أن يسأله:

«أصل القعدة كده زى قلتها».

الأستاذ عبد الله شعر بالضيق من هذه الطريقة التى زادت عن حدها فى الكلام، وبانت على وجهه علامات الاستهجان. وكان تقديره لشقيقه فى هذه اللحظة أنه صحيح طيب، لكن مجرد حمار، وأن الحكاية القديمة التى جرت بينهما لظروف موضوعية تمامًا لا تبرر له أبدًا أن يضع نفسه معه على قدم المساواة، خصوصًا من الناحية الفكرية. صحيح أن حالة الارتباك، أو التوتر، فى علاقاته بكل الناس الذين التقى بهم بعد الإفراج عنه كانت من المسائل الملحوظة، إلا أنها كانت حالة متبادلة بينه وبينهم، ولقد ظل لسنوات طويلة يرى فى عيونهم ما لا يفهمه، وظل لا يعرف على أى نحو، مثلاً، يأخذون كلامه، وإلى أى درجة يمكنه أن يتبسط مع هذا أو ذاك. كان

أبوه قد مات فى غيابه الطويل، واستقبلته أمه فاتحة ذراعيها، وهى تجرى حافية فى فضل الله عثمان. كان هو الذى بكى. أما هى، فقد واصلت سيرتها الأولى، نرجس، فى نظر الكل، ردت فيها الروح. تغلبت على الحزن، والمرض، والإعياء. تعد له الإفطار وتوقظه من النوم. تدخل عليه بالشاى، تجلس، تحكى له عما جرى فى فضل الله عثمان: «اسكت يا عبدالله يا ابنى، ولا دريت باللى جرى لعمك أحمد الرشيدى»، وتتابع أثر ما تحكيه بعينين فيهما تساؤل، فيهما رجاء. كانت تواصل ما انقطع حول أمور لم يعد يعرفها، ولا يذكرها.

وعبدالله قضى الليل عند ليلى، وفى الصباح عاد إلى فضل الله عثمان.

طلع السلالم القليلة، ونقر على زجاج الشراعة ونرجس قالت:

«مين؟»

«أنا يا امّه».

«أيوه يا عبد الله».

وفتحت الباب.

عبد الله فوجىء بالصالة ممتلئةً بالدخان. ورأى أمه تسبقه ناحية المطبخ وهى تقول لاهثة:

«اقفل وراك».

كانت قاعدة عند المرحاض وأمامها أوراق أمسكت فيها النار وآثار هباب وحقيبة جلدية مفتوحة إلى جوار ركبتها اليمنى، والمقشة اللوف مرمية.

عبدالله عرف الحقيبة، وعرف الورق وقال:

«بتعملى إيه يا امه؟ وإيه اللى جاب الورق ده هنا؟»

«اصبر يا عبد الله».

وتناولت بعض الأوراق التى لم تحترق بعد، أشعلتها وراحت تقلبها حتى أتت عليها النيران ثم فتحت الحنفية وتركت الماء يجرى وهى تدفعه بالمقشة حتى نظفت أرضية المرحاض. أغلقت سوستة الحقيبة الفارغة، وقامت وهى تعتمد على ركبتيها وتقول:

«كانت مليانه على آخرها».

والتفتت إليه.

«افتح الشباك».

واندفعت شمس الصباح وأضاءت سحب الدخان ولمست مسند الكنبة اليمنى. ونرجس أمسكت بالفوطة وراحت تطوحها وتهوى الصالة. ثم جلست فى ركنها المختار عند التقاء الكنبتين وجففت وجهها بطرف جلبابها العلوى وهى تجذب جلبابها الداخلى على قدميها وتكح وتقول:

«ولا دريت إيه اللى حصل».

«هو إيه اللى حصل؟»

«الجماعة بتوع الحكومة» .

«حكومة؟»

«راحوا سألوا عن صاحبك حمامة ومراته» .

«سألوا فين؟»

«فى البيت اللى كانوا ساكنين فيه» .

وأشارت إلى الحقيبة الخالية وقالت إنها لو عرفت أنه سوف يأتى الآن كانت تركتها ولكنها خافت :

«يفتشوا زى المرة اللى فاتت» .

«حمامة اللى جابها؟»

«لا . سلامة» .

«سلامة أخويا؟»

«جابها بعد أبوك ما خرج على طول» .

وأخبرته أن أصحاب البيت الذى كان يسكن فيه حمامة وزوجته قالوا للحكومة إن سلامة هو الذى أتى بهم ليسكنوا عندهم :

«عدوك لما عرف أن بتوع الحكومة سألوا عنه هو كمان» .

«وهو فين دلوقت؟»

«هربان عند حماته» .

«أنا لازم أشوفه» .

«زمانه جاى . . فطرت؟»

خرج عبد الله إلى فضل الله عثمان .

كان سلامة يركن ظهره إلى الجدار تحت بلكونة حماته المنخفضة .

أشار له بيده فاقترب مسرعًا . ثم مشى على مهله بالقميص والبنطلون ، وصعد الدرجات القليلة وراء عبد الله وهو يقول :

«شفت اللى حصل؟»

وعندما جلسا فى الحجرة الخارجية فرد ذراعيه على جانبى المسند الخلفى .

وعندما التقت عيناه بعينى شقيقه أوشك أن يبكى . كان وجهه صبوحًا وفتيًا فى ذلك الوقت .

أخرج عبد الله علبة سجائره ولكن سلامة رفض . وجاءت نرجس بطبق نظيف وطلبت من سلامة أن يقوم ويحضر الفول لكى يفطر هو وأخوه .

تناول سلامة الطبق . وضعه إلى جواره وقال :

«حاضر يا امّه» .

ولم يتحرك .

قال عبد الله إنه يريد قبل كل شىء أن يعرف حكاية هذه الحقيبة :

«أخدتها من مين؟ وأخدتها ليه؟»

وقال سلامة .

«أنا لا أخدت ولا هببت» .

وأخبره أنهم تركوها أمانة عند سامية زوجته.

«إمتى؟»

«قبل ما يعزلوا».

«وليه ما قلتش».

«أنا عرفت امبارح، بالمصادفة».

وقال إن الحكومة لما سألت عن حمامة وزوجته، أصحاب البيت أخبروهم أنهم عزلوا، وأن سلامة قد يعرف عنوانهم الجديد لأنه هو الذى أتى بهم إلى هنا، وأن الحكومة طلعت خبطت على الشقة عندى:

«كنت أنا هنا».

«أمّال عرفت ازاى؟»

«لما رجعت بالليل، السكان قالوا لى».

«قالوا لك إيه بالضبط؟»

«هات سيجارة».

وقال إنهم أخبروه أن تجار موبيليا من دمياط سألوا عن حمامة وزوجته لأن عليهم أقساطًا متأخرة، والأوسطى سعد الميكانيكى أخبره أنهم حضروا فى عربة ميرى وركنوها وراء الجامع. وأضاف سلامة أنه فهم طبعًا. ولما تكلم مع سامية تذكرت الحقيبة وأخرجتها من تحت السرير. ونفث الدخان وقال:

«موبيليا قال، دول كانوا نايمين على الأرض يا با».

ونرجس قالت من الصالة :

«قوم يا سلامة هات الفول وافطروا الأول» .

«أيوه يا امه» .

ولم يتحرك .

وجلس عبد الله يدخّن ويفكّر .

قال إن المسألة بسيطة ، على شرط أن أى واحد يسألك تقول إنك التقيت بهم مصادفة يبحثون عن سكن فى المنطقة ، وإنك أخبرتهم بهذه الشقة التى تجاورك . وفى ما عدا ذلك لا تعرف عنهم أى شىء . وتساءل سلامة عن هؤلاء الذين سوف يسألونه .

وقال الأستاذ :

«أى حد يسألك» .

«وهم ح يشوفونى فين علشان يسألونى؟»

«فى البيت مثلاً» .

«وأنا إيه اللى يودينى البيت؟»

«أمال ح تروح فين؟»

«أى حتة» .

«بقى ده كلام؟»

«أمال استنّاهم؟»

«طبعًا» .

وقال إنهم إذا حضروا فلابد أن يجدوا سلامة فى البيت يمارس حياته العادية ويتصرف معهم كأنهم تجار موبيليا من دمياط. لكن إذا ترك البيت فمعناه أن هناك شيئًا خطيرًا:

«وانَّك هربان».

وجلس سلامة يفكر فى الكلام.

وجاء صوت نرجس من الخارج يطلب منه أن يسمع كلام أخيه، ويقوم يحضر الفول لأنها وضعت الشاى على النار. وارتفع خبط على شراعة الباب، وهب سلامة واقفًا، بينما انتبه عبد الله والتفت إلى الشباك المفتوح. ونرجس قالت:

«مين؟»

«أنا أبو سامية».

وعاد سلامة للجلوس، بينما فتحت نرجس الباب. ودخل الحاج فريد وهو يبعد يديه الملوثتين عن حجر الجلباب:

«إيه الحكاية يا سلامة؟»

قال سلامة:

«أبدًا».

«لا حول ولا قوة إلا بالله».

ولمح عبد الله بطرف عينه:

«مالك إنت بس ومال الحاجات دى؟»

وتنهد :

«أما أقوم» .

قالت نرجس :

«الشاى يا أبو سامية» .

وقال الحاج فريد إنه فك الموتور وتركه فى حوش البيت .

«بقى لنا يومين مش لاقيين نشرب كباية ميه . حاجة تقرف .

سلامو عليكم» .

وهنا قال عبد الله إن أخطر شىء هو ما يحدث الآن . أنت تحكى لسامية ، وهى تحكى لأبيها ، وهو يحكى لكل من يقابله ، مع أن المفروض أنك لا تعرف أى شىء سوى أن هؤلاء الناس مجرد تجار موبيليا من دمياط .

وأمره أن يطلب فوراً من سامية والحاج فريد أن لا يتكلما فى هذا الموضوع إطلاقًا . ولفت نظره إلى أن الحكومة لو عرفت أن حمامة وزوجته يعرفوننى ، فى الوقت الذى أنت فيه أخى ، فإن الكل : «ح يروح فى داهيه» .

وانشغل سلامة ، للحظة ، بالتفكير فى ما لاحظه عندما خبط الحاج فريد على الباب .

وفى ما بعد ، عندما انفردت به نرجس وطلبت منه أن يسمع كلام أخيه الكبير وينفذه بالحرف ، التفت إليها وهو يمسك بضلفة الباب وقال :

«على فكره يا امه ، لما الحاج فريد خبط على الباب ، أخويا عبد الله كان عاوز ينط من الشباك» .

كان الأمر واضحًا بالنسبة إليه: لو الحكومة كبست عليه وسألته فإنه سوف يقول إن حمامة وزوجته هما فى الأساس صديقا شقيقه عبد الله، وإن عبدالله نفسه هو الذى طلب منه أن يجد لهما مسكنًا على مقربة منه. وفى ما عدا هذا فإنه، لا يعرف عنهم شيئًا. هذا موضوع مفروغ منه. سامية تقول: «قال يا روح ما بعدك روح». وهو يقول: «الله؟ إذا جالك الطوفان، ارمى ولدك تحت رجليك». لكن المشكلة كانت فى الحالة العجيبة التى استولت عليه، الحالة التى تجعله يذهب إلى بيت أمه بدلاً من الذهاب إلى المطبعة، حالة هذا النوع الغريب من الإسهال المتصل، والذى يدفعه دفعًا، أثناء النهار، إلى الجرى السريع الذى لا مثيل له، والذى يلجئه، أثناء الليل، إلى شاطىء النهر، أو أى ركن مظلم، يفك البنطلون ويقعد، يعافر، ويتوجع وهو فى غاية الألم، والخجل، ولا من مغيث.

كان سلامة يناضل فى أكثر من اتجاه.

وفى ذلك اليوم، طلع السلم قفزا، كعادته فى الأيام الأخيرة. قلع الحذاء والبنطلون وهو واقف يلهث فى صالة الشقة الصغيرة وتفادى الولد الذى كان يلعب بكنكة القهوة الفارغة، وأسرع إلى المرحاض، وسامية قامت من وراء ماكينة الخياطة، ركنت الحذاء وعلقت البنطلون.

وضعت الطبلية وعادت بطبق ملوخية وورك فرخة مسلوقة.

سألته وهو يجلس على الحصيرة ويمد يده بنسيرة من الورك إلى الولد الذى ترك الكنكة واقترب:

«ح تنام؟»

«ربنا يسهل».

«كنت عاوزاك تسرج ديل الجلابية بتاعة فريدة، وتركب الزراير».

«أما اصحى».

وغسل يديه وأشعل سيجارة، وأسرع مرة أخرى إلى المرحاض.

بعد قليل سمع، وهو فى محنته، أصواتًا بعيدة وكلامًا غير واضح، ثم نقرًا على باب المرحاض، وسامية تطل عليه. كانت فتلة رفيعة بيضاء تتدلى من ركن شفتيها ووجهها فى لون الليمونة الصفراء. همست:

«جم يا سلامة. جم».

سلامة تأمل وجهها المرعوب وهو قاعد لام هدومه والسيجارة فى يده، ووجد نفسه يقول:

«ولا يهمك».

وابتدأ يغسل نفسه مع أنه لم يكن قد فعل شيئًا. وأثناء خروجه اصطدمت به سامية وهى تحمل الطبلية وتكاد تنكفىء، قال غاضبًا:

«حاسبى».

والتفت إليهم:

«أهلاً وسهلاً. اتفضلوا».

كانوا ثلاثة. دخلوا إلى الحجرة وهم يتلفّتون حولهم، ووقف سلامة فى المدخل المفتوح وقد اتسعت ابتسامته:

«هيه، شاى، ولا قهوة؟»

«لا شكرًا».

هكذا قال أصغرهم، بينما كان الثانى يلتفت إلى صورة ملونة معلقة لأعضاء فريق الزمالك وأمامهم كأس مصر. أطل سلامة خارج الحجرة فاقترب وجهه من وجه سامية التى تقف خارج الباب مباشرة. حدق كل منهما إلى وجه الآخر. وهمست:

«همه. مش كده؟»

لم يرد عليها. صاح كأنها هناك فى المطبخ:

«الشاى يا أم محمد».

والتفت.

مد يده بعلبة السجائر ولكنهم رفضوا.

«إحنا سألنا عنك من كام يوم».

«قالوا لى».

وقال إن السكان أخبروه أن تجارًا من دمياط سألوا عن الأخ اللى اسمه حمامة. وقال إنه:

«زعل قوى»، لأنه لم يكن موجودًا، وأضاف أن والدته مريضة جدًا وهو يذهب لزيارتها يوميًا.

قال أصغرهم إنهم يريدون رؤية حمامة وزوجته. وسلامة قال: «يا ريت».

وأخبرهم أنه لم يعرف أنهم عزلوا إلا بالمصادفة.

ونادت سامية من الصالة خرج سلامة وعاد بصينية الشاى التى تجاهلوها:

«مش انتوا أصحاب يا سلامة».

سلامة هز رأسه نفيا.

«إحنا عارفين علاقتكم ببعض. جيرانكم قالوا لنا».

قال، وقد تلاشت ابتسامته، إنه لو كان يعرف مكانهم فلماذا ينكر؟ وإن كل علاقته بهم أنه كان عائدا من العمل فى أحد الأيام وهو يركب العجلة، وضحك:

«أيا ما كان عندى عجلة بقى...».

كنا فى رمضان وساعة إفطار والدنيا فاضية.. ولما نزل عن العجلة لكى يدخل البيت، فوجىء بواحد يسأله عن طريق سكن، بالمصادفة، الأوسطى رزق السباك عنده حجرة خالية، شاور لهم على البيت وهو واقف. ومن يومها لم يرهم إلا مرة أو مرتين أثناء دخوله أو خروجه من البيت، وصاح:

«طفاية يا أم محمد».

فى الصالة، كان أحدهم يفحص الصور العائلية الموضوعة تحت زجاج الشيفونيرة المشروخ. كان يفحصها واحدة واحدة، وعندما انتهى قال:

«أنت مأجر الشقة دى بكام؟».

«تمانية جنيه فى الشهر. إيجار قديم».

اتجه الآخر إلى حجرة النوم وفتحها:

«قد التانية؟»

«أصغر شوية».

واتجه إلى المطبخ، وأثناء عودته أطل داخل المرحاض.

قال سلامة:

«لكن بادفع كل أسبوع خمسة جنيه للنزح. أصل ما فيش مجارى».

«الورقة دى يا سلامة فيها نمرة تليفون. إذا عرفت أى حاجة عنهم، اتصل بينا على طول».

ونزلوا السلم الضيق.

ظل واقفا حتى قدر أنهم وصلوا إلى الحوش، وصاح:

«مع السلامة».

جلس على الكنبة وقد ترك باب الشقة مفتوحًا.

ونظر إلى سامية وسألها عن الجلباب الذى تريد منه أن يسرج ذيله ويركب له الزراير.

عندما ذهب إلى فضل الله عثمان والتقى بعبد الله، تحدث معه فى أشياء مختلفة ثم قال، بشكل عابر تمامًا، إنه التقى الحكومة. وحكى له الموضوع بنوع من التأنى الواضح. وكان يقطع كلامه أحيانًا لكى يشرب، أو يذهب إلى دورة المياه.

وعبد الله استمع إليه، ثم أخبره أنهم قبضوا على حمامة.

سلامة بهت...

ظل صامتًا وقد ظهرت عليه علامات التردد.

شعر أن الموضوع لم ينته. وبانت بوادر الإسهال على وجهه، وقال:

«قبضوا عليه ازّاى يعنى؟»

عبد الله قال إن المباحث التى زارت سلامة بالأمس، أمسكت العربجى الذى نقل المرتبة والكتب والمخدات وعرفوا منه العنوان. سلامة همس:

«ومراته؟»

«مراته لسة هربانة».

وفى اليوم التالى، قبض على عبد الله نفسه.

أثناء خروجهم.

طلبت منه دلال أن يطمئنها، حين يرجع من البلد.

وسلامة قال:

«أنت مسافر بكره؟»

ورد الأستاذ:

«إن شاء الله».

«ماتنساش موضوع الأرض».

كانا يتقدمان فى فضل الله عثمان.

والأستاذ لاحظ أنه صغر، أو ضاق عما كان، وملأه العجب من أرضه التى ما زالت تعلو هكذا، بحيث أن المداخل على جانبيه ظلت تزداد

انخفاضًا مع الأيام. كان يفكر فى أصحاب المبانى القليلة التى كان يعاد بناؤها، أيام صباه، وكيف كانوا يجعلون مداخل بيوتهم الجديدة تعلو عن الأرض بثلاث درجات على الأقل، معتقدين أنها سوف تصبح فى مستوى الشارع مع مرور الوقت، إلا أن الأرض كانت تواصل الارتفاع، لتحول هذه إلى مداخل منخفضة بدورها. وكان بوسعه دائمًا أن يفرق بين عمر مبنى عن آخر بالنظر إلى مدى انخفاضه عن غيره، والآن كان يشعر بالرضى لأن أحدًا ممن يعرفهم لم يره. شباب من جيل آخر يقفون على النواصى. سلامة يلقى عليهم التحية وهو يسير إلى جواره منتصب القامة ومزهوا. والأستاذ، من ناحيته، يرى فى ذلك نوعًا من الافتعال السخيف. ولمح عربة الدكتور رفعت مركونة تحت نافذة العيادة المفتوحة.

آخر مرة جاء فيها إلى فضل الله عثمان، رأى البنت شربات الصغيرة التى كانت تلاحقه من زمان بعينيها الشقيتين، والتى كانت تشاركهم اللعب على شاطىء النهر بضفيرتيها، ثم اختفت مثل غيرها من الأولاد والبنات. لمحها كومة كبيرة من اللحم تجلس على الأرض حافية فى مدخل أحد البيوت دون أن يعرفها. وما أن اعتدل حتى سمعها تقول، بين الكلام والغناء:

«والله زمان يا سلاحى».

التفت وعرفها من عينيها، وابتسامتها الجميلة القديمة.

وتهلل وجهها لما أدركت أنه عرفها. وقالت، بصوت مسموع جدا:

«اتفضل».

«متشكر».

هكذا همس وهو يحس بشىء مثل العار .

وخيل إليه أن هذا هو البيت الذى كانت تجلس أمامه . ولكنه لم يكن واثقًا . وكانا يمران أمام باب بيتهم القديم ، وشباك شقتهم المقفل فوق عربة العم محمد الرشيدى التى نامت إطاراتها الفارغة وأكلها التراب . وكان دكان محمود عبد اللطيف يلوح من بعيد . شىء غريب فعلاً . كانوا يجلسون أمام الراديو الألمانى الذى اشتراه أبوه من حسن السودانى ، وراء هذا الشباك المقفل ، عندما دوّت طلقات الرصاص وساد هرج . وسمع صوتًا يقول «أيوه . هوه اللى هناك ده» ، ثم علت الأصوات وتداخلت ، ليهيمن صوت عبد الناصر صائحًا : «أيها الأخوة المواطنون ، أيها الرجال ، ليبق كل منكم فى مكانه . إذا مات جمال عبد الناصر ، فكلكم جمال عبدالناصر» . طوال الليل وعمليات القبض على الإخوان المسلمين والتفتيش عن الأسلحة تعم المنطقة كلها ، وفى الصباح ، ازدحمت صالة شقتهم بمحمد الرشيدى ووالده الحاج أحمد الرشيدى والحاج محمود الفحام وخاله عبد الرحيم وغيرهم بينما وقف أبوه ممسكًا بالجريدة التى حملت صورة المتهم ، وسمعه يصيح فجأة : «يا نهار أسود ، ده محمود السمكرى» صعد على الكنبة ورأى الصورة ولكنه لم يتعرف إلى محمود السمكرى جيدًا . فى طريقه إلى المدرسة صباحًا كان يراه وهو يجلس بالقميص والبنطلون وراء منضدة صغيرة من الصاج ، أسمر اللون وممتلئا قليلاً ، يعطى جنبه للطريق وهو يتلو القرآن ويتمايل فى إيقاع منتظم وقد عصب رأسه بمنديل . خيّل له أن وجه صاحب الصورة أكثر ضخامة وسوادًا . اندفع جاريًا مع غيره من الأولاد ناحية الدكان . كان الباب عبارة عن شيش من الصاج يثبت إلى الأرض بقفل كبير ، وكأن شيئا قويًا قد ضغطه على المحتويات حتى ألصقه بالجدار الخلفى ، بينما ظلت حافة هذا

الباب مثبتة فى مقدمة الدكان. سنوات طويلة وهو على هذه الحال، ثم تعاقب المستأجرون. مرة رآه محلاً للحلاقة، ومرة رآه ممتلئا بأكياس الأسمنت الورقية الفارغة بينما جلس أمامه رجل يقوم بفك هذه الأكياس وقطع زوائدها، ليقوم آخر بتحويلها أكياسا أخرى صغيرة. الآن، فى ضوء النيون، وراء الطاولة الزجاجية وبرطمانات الحلوى وأكياس الشيبسى. والبوزو واللبان، والبالونات الملونة المعلقة، كانت البائعة الشابة واقفة تعبث بالمسجل الصغير.

عند الناصية صافح شقيقه، ولاحظ دكان صانع الحقائب المدرسية، وكيف انخفض مدخله إلى الحد الذى جعله يلمح كتفى العجوز وهو يجلس هناك تحت مستوى الأرض وراء المنضدة التى وضعت عليها ماكينة الخياطة، واللمبة المدلاة من السقف تكاد تلامس قمة رأسه الخالية. وقبل أن يخرج إلى طريق النيل، جاءه صوت سلامة من بعيد:

«ماتنساش موضوع الأرض».

جلس على حافة الشاطىء.

كان النهر ساكنًا، وبدت أضواء المصابيح التى انعكست فيه عكرة وذاوية.

فكر عبد الله بن عثمان أن الماء نائم.

الأرض؟

تلك التى يحلم بها إخوته.

أين؟ وكيف؟

كانت هذه الأرض ملكا، فى الأصل، للجدة الكبيرة عزيزة.

وعزيزة ماتت.

الثلث ورثته ابنتها هانم، جدته،

والثلثان ورثهما ابنها عبد العزيز، شقيق جدته.

وظل عبد العزيز يفلحها بنفسه.

لكن عبد العزيز مات.

والعمدة عبد الرحمن أعطاها لمستأجر من معارفه.

أبناء عبد العزيز لهم الحق فى ثلثى الإيجار.

وهانم الثلث.

لكن هانم ماتت.

الثلث، يرثه أبناء هانم:

نرجس، وعبد الرحيم.

ثلث لنرجس،

وثلثان لعبد الرحيم.

ونرجس ماتت.

المفروض أن يرثها عبد الله وإخوته.

وعبد الرحيم مات.

والمفروض أن ترثه دلال وعيالها. ودلال أخبرته أن العمدة

عبدالرحمن مات، والمستأجر القديم مات، وعياله ماتوا ولا أحد منهم يعرف أين هى الأرض ولا من يركبها الآن.

حكاية، لا أول لها ولا آخر. صحيح أن كل حى منهم له حق، ولو شبرًا، فى هذه الأرض.

لكن أين؟ وكيف؟

ويسافر يقول يا من. . . ؟

راح يمشى ويفكر.

وقام عبد الله واقفًا.

زمان كانوا يستقبلونهم على رصيف المحطة. ينحنون عليه ويعبثون بشعره. يحملون الحقائب عن أبيه ويتجهون إلى الدار حيث تقف جدته هانم وأمها عزيزة فى ركن البوابة الكبيرة. كان يعرف أنه سوف ينزل من القطار، يعبر الطريق السريع ويتجه إلى مدخل القرية، حيث شونة القمح فى الناحية اليمنى والطاحونة فى اليسرى، تلك التى كان صوت صفارتها المتقطع يظل يتردد ليل نهار فى أذنيه طوال فترة الإجازة. بعد أن يمشى قليلاً يجد الطريق قد أصبح اثنين. يمتد أحدهما إلى الجهة التى ذهب فيها مع سالم لكى يلعبا عند الساقية وشجرة الجميز الكبيرة والنخلة التى زرعوها يوم مولد أبيه «النخلة دى يا واد عبد الله زرعوها يوم ما اتولدت»، كان يقبض على كفه ويقف تحتها، قال: «اسمها نخلة البهى». وسيدى على الشمبابى الذى ظلت أمه تذكره طول العمر. وراشد الميكانيكى الذى كان يعود فى آخر قطار ويصيح فى العتمة وهو مخمور أيام الانتخابات ويقول: «يسقط ربّنا» ويصيب أهل القرية بالرعب، ثم أطلق لحيته ولبس الجلباب

على اللحم وصار من أولياء الله الصالحين. مرة أكل من ثمار الجميز السابح فى ماء الترعة. وفى الليل تقيأ وخافوا عليه، وأيقظوا سالم من النوم وأخبرهم واطمأنوا.

أما الآخر فيفضى إلى دكاكين. وهناك منحل، فى الجانب الأيسر من الطريق. وهناك جرن، والبحيرة، وبيت جدته هانم وأمها عزيزة.

كان الخال الكبير عبد العزيز يصنع له أرجوحة من حبال يربطها فى عروق السطح العالية.

مرة أكل ثمرة باذنجان رومية عسلية اللون قطفها بنفسه من شجيرة قصيرة خضراء.

مرة دخلوا حقلاً ورأى صبية يجلسون فى شبه دائرة وهم يمضغون أوراق الرجلة ويدلكون أعضاءهم المنتصبة العارية. أخبره سالم أنهم يريدون أن يعرفوا هل بلغوا وصاروا رجالاً أم لا.

مرة كان شباب يهيجون العصافير التى تبيت فى سقف حوش الدار الكبيرة. يقبضون عليها بالطواقى المفتوحة، ويعطونه واحدة لا تلبث هى الأخرى أن تطير.

مرة أخذه خاله عبد الرحيم وسهر من شباب كبار على مصطبة ممتدة عند البحيرة الكبيرة. كانوا يرفعون وجوههم فى صمت إلى واجهة قصر كبير من الطين بها صف عالٍ من النوافذ الطويلة المعتمة. فجأة، لاح نور برتقالى خفيف فى واحدةٍ من هذه النوافذ العالية من لمبة محمولة. وبان وجه بشعر طويل، ثم انطفأت اللمبة.

وهمس صوت :

«عايدة» .

وهو صغير ،

كان الأولاد فى مثل سنه ،

ينصبون فخاخهم على شاطىء النيل ،

ويغطونها بطبقات رقيقة من التراب ،

أو الأعشاب ،

لا يتركون ظاهراً منها إلا تلك الديدان الدقيقة ،

أو حبات القمح ،

والأرز ،

التى يطعمون بها هذه الفخاخ المصنوعة من السلك .

بين حين وآخر ، وهو واقف ،

كان يرى فخّاً أو أكثر وهو ينطبق ،

يثير رذاذاً من القش والعفار وقد أمسك بواحدة من تلك العصافير الصغيرة ،

التى كانت تنتقل ، بين أغصان الأشجار المائلة ،

وشاطىء النهر المنحدر.

حصل لنفسه على فخ،

ولكنه لم يفلح أبدًا فى اصطياد عصفور مثل بقية الأولاد،

هؤلاء الذين يباهى الواحد منهم باصطياد أكثر من عصفور فى اليوم.

كانوا يربطونها بخيوط رفيعة،

ويدعونها تحلق،

وهى جريحة،

وتقع

وهم يمسكون بطرف الخيط،

ويضحكون.

جرّب حظه على امتداد الشاطىء كله.

نقل فخّه من موضع إلى آخر.

وضع قمحًا، وأرزًا،

كما استخدم الديدان الصغيرة،

وكان الفشل من نصيبه،

كانت نرجس تعرف،

وزاده ذلك إحساسًا بقلة الحيلة،

والخجل من أقرانه،

والألم.

مرة،

ذهب يشترى شيئًا،

أثناء عودته،

لمح عصفورًا صغيرًا يعرج،

وقد اتكأ بكتفه على أحد الجدران.

حمله مسرعًا.

وضعه فى جيب جلبابه الجانبى، وصعد الدرجات القليلة.

أعطى ما اشترى لأمه وهو حريص على أن يبدو طبيعيًا.

أخذ فخه من تحت طاولة الكنبة،

أخبرها أنه ذاهب لاصطياد عصفور،

وخرج كأنه ذاهب إلى شاطىء النهر،

صعد السلم خفية إلى سطح البيت.

أراد أن يضعه فى الفخ،

ويمضى فترة،

ثم يعود إلى أمه حاملاً العصفور،

كأنه اصطاده.

اعتلى الحجر الكبير عند سور السطح،

وأخرج العصفور من جيبه، وفتح حلقة الفخ.

حاول أن يجعله ينطبق على رقبته،

برفق،

لكنه صوصو من الألم.

حاول مع قدميه، جناحيه،

لم يكف العصفور عن الألم،

وهو الذى لم يطاوعه قلبه، وقف يفكر فى هذه المشكلة،

فجأة،

رمقته عينه القريبة بنظرة لامعة،

خمشه بأظافره الرفيعة الحادة.

جرحه،

وقفز.

مال وراءه.

تابعه وهو يهبط ناشرًا جناحيه الخفيفين،

ويحط على سور السطح المجاور المنخفض.

ومضت فترة، وألقى نفسه مرة أخرى.

كان يحاول،

إلا أنه ظل يهبط حتى حاصرته جدران البيوت فى الحارة الجانبية الضيقة.

أوشك أن يقع بين الأولاد الذين راحوا يقفزون فى محاولة للإمساك به،

بينما هو يتشبث بخشونة الأحجار هاربًا، وقد التفت إليهم بوجهه الصغير،

مرفرفًا من جدار إلى آخر حتى هدّه الإعياء،

وعندما أدرك أن العصفور هالك لا محالة،

لكن العصفور تعلم الطيران،

نهض محلقًا حتى صار فوقه،

وحوم مرتين،

ثم اندفع يعبر الأسوار والأشجار،

ويعلو فى براح السماء البعيدة،

ويختفى.

صعد درجات السلم على مهله.

فتح باب الشقة، ووقف فى الصالة،

لمح قدمى زوجته النائمة عبر باب حجرة النوم الموارب، ودخل غرفة الولدين.

كل واحد على سريره المعدنى المفروش . الكبير جذب الغطاء حتى رقبته ،
والصغير دفع الملاءة إلى حافة السرير .

سحبها عليه ، ودثره جيداً .

وبينما هو مائل يربت على ظهر الولد النائم ،

شعر عبد الله بن عثمان بيد أبيه تلامس كتفيه من خلف .

وارتجف فى العتمة .



٥

وفى عنبر الرجال، كانت دلال تجلس على البلاط بجوار الدولاب المعدنى الصغير الذى وضعت عليه علب الدواء، وبطاقة التأمين الصحى، ودورق الماء، والكوب.

كان المغص يشتد عليها فتمد ساقيها تحت السرير، أو تلعب بالخرطوم الأصفر المدلى من أسطوانة الأكسجين. وبين وقت وآخر، كانت ترفع رأسها لتطمئن إلى عبد الرحيم الذى جلس على الفراش منذ أيام، وقد تعب قلبه وزحف الورم إلى وجهه وقدميه، فإذا رأت دماغه مائلاً على صدره أكثر مما يجب، أو بان لسانه وانقطع نفسه، كانت تقوم وهى تتشبث بحافة السرير، تفتح صنبور أنبوبة الأكسجين كما علموها، وتتناول الخرطوم الرفيع، وتروح تحرك طرفه أمام فمه المفتوح وأنفه المائل. تظل تفعل ذلك حتى تنتظم أنفاسه ويستفيق. حينئذ تغلق الصنبور وتعود إلى مكانها. تستغرق فى أى شىء يخطر على بالها، أو تعيد ترتيب الأشياء على الدولاب، أو تذهب إلى دورة المياه، أو تسأله:

«أعصر لك لمونة يا عبد الرحيم؟»

«اقعدى».

«بتقول إيه؟ مش سامعة».

«أختى نرجس جت؟»

«لسه».

«عبد الله ابن أختى جه؟»

«لسه. هو أنت عاوز حاجة؟»

«عاوز سيجارة».

ويميل بعينه، ويهمس:

«الراجل اللى قاعد هناك ده، أبو طربوش، هاتى منه سيجارة، قولى له لغاية عبد الله ما ييجى».

وتتلفت دلال حولها وتقول:

«هو فين اللى قاعد ده؟ الناس كلها نايمة يا عبد الرحيم، وما حدش لابس طربوش».

«طيب اسكتى».

«هه؟»

«اسكتى».

«أدينى سكت».

وتقعد.

كان العنبر صغيراً، به أربعة أسرة مشغولة بمرضى قلب وفشل كلوى. وكانت دلال خلال الأيام التى رافقت فيها عبد الرحيم قد عرفت سكة الشارع، وحجرة الحكيمات، ودورة المياه. وفتحت الدولاب، وقعدت

تنكش فى نشرات الأدوية، وتبتسم لنفسها دون أن تحس بنرجس التى جاءت تلهث فى ثوبها الأسود، وهى تحمل كيسًا من البرتقال، وقعدت على حافة السرير وقالت:

«إزيك النهار ده يا عبد الرحيم؟»

وقالت دلال دون أن تكف عن الابتسام:

«أختك جت يا عبده».

«أختى مين؟»

«أختك أم عبدالله».

«إزيك يا نرجس؟»

«إزيك أنت يا عبد الرحيم؟»

«أنا كويس».

وقالت نرجس:

«عواف يا دلال».

«الله يعافيكى يا عمتى؟»

وتناولت كيس البرتقال وحشرته فى الدولاب:

«أقشر لك واحدة يا عبد الرحيم؟»

«واحدة إيه؟»

«برتقان».

«لا».

مدت دلال يدها وأخذت واحدة قشرتها وبدأت تأكلها ولكن المغص زاد عليها وقرصها أسفل بطنها، وفكرت أن تترك عبد الرحيم برفقة عمتها نرجس، وتنزل إلى العيادة الخارجية، تقطع تذكرة وتدخل إلى الحكيم يكشف عليها ويصف لها العلاج. ولكنها تذكرت أنها غادرت الدار في فضل الله عثمان مسرعة وراء عبد الرحيم وجاءت إلى المستشفى دون أن ترتدي سروالها الداخلي، ووضعت نصف البرتقالة على سطح الدولاب الصاج، وقامت واقفة، ومالت عليه وقالت:

«عبدالرحيم. عبده».

وفتح عبد الرحيم عينيه دون أن يرفع رأسه أو يرد.

«أنت سامعني؟».

«أيوه».

نرجس انتبهت للكلام، ولكن البنت دلال همست داخل أذن عبدالرحيم اليمنى، وطلبت منه أن يعطيها سرواله الداخلي:

«أكشف بيه، وأرجعه لك تاني».

وقال عبد الرحيم:

«هيه؟»

«اديني لباسك أنزل أكشف بيه».

ومالت نرجس وهي تنقل عينيها بين الاثنين دون أن تتمكن من السمع:

«فيه إيه يا ولاد؟»

وثقل رأس عبد الرحيم لفترة، ثم سمعته نرجس وهو يتساءل إن كان معنى هذا أن دلال تقف أمامه الآن:

«من غير لباس؟»

ونرجس ضربت بيدها على صدرها وقالت:

«يا مصيبتى. إيه الكلام اللى بتقوله ده يا عبد الرحيم؟»

وقالت دلال:

«يا خويا قيمة ما انزل لغاية الدكتور واطلع».

«آه يا مره يا بنت الكلب».

ابتسمت دلال وهى تستدير. وغاب هو مرة أخرى.

وعندما أفاق، رجع يقول:

«لباسى؟»

وضمت نرجس أصابعها أمام فمها الخالى من الأسنان:

«يا نهار منيل. كلام إيه ده يا ولاد؟»

وقالت دلال:

«جرى إيه يا عبده؟ هو أنا حاكله؟»

«آه يا مره يا بنت الكلب. يا بنت تفيدة يا ناقصة».

وهمست نرجس:

«عيب يا عبد الرحيم».

«اسكتى يا نرجس».

«طيب يا خويا وطى صوتك».

«أوطى صوتى ازاى؟ أنا لازم أفضحها».

وبدأ يلهث.

اتجهت دلال إلى أنبوبة الأكسجين. وراقبتها نرجس وهى تفتح المحبس، ثم وهى تحرك الخرطوم أمام أنفه وفمه المفتوح، ولاحظت أن عبدالرحيم هدأ وترك رأسه يرتاح على صدر دلال الممتلئ.

ونرجس مدت يدها من سكات وتناولت الخرطوم الذى تركته دلال على طرف السرير، وحركته أمام شفتيها وخدها الأيسر، وانتبهت بعينيها وهى تحس بهذا النفس من الهواء الرطب وهو يلامس بشرتها مثل خيط غير مرئى. ورفعت وجهها إلى الأسطوانة الطويلة عند رأس السرير، وإلى عبدالرحيم الذى نام بينما دلال تعبث بشعره الناعم بأصابعها السمينة البيضاء.

وجاءت ممرضة سمراء اللون.

وقفت فى مدخل العنبر وقالت بمرح:

«إيه يا دلال، جوزك عامل إيه؟».

«حلو يا ست سلوى. تعالى كلى برتقان».

«متشكرة».

اتجهت الممرضة إلى الأنبوبة. أغلقت الصنبور، ووضعت يديها فى جيبى معطفها الأبيض، وأشارت برأسها إلى نرجس:

«أمك؟»

«لا . دى عمّتى . أخت سى عبد الرحيم» .

«أهلا يا حاجة» .

واستدارت خارجة .

قالت نرجس وهى تتابع مؤخرتها المحبوكة :

«أهلا يا ختى» .

وقال عبد الرحيم دون أن يفتح عينيه :

«طول عمرك وأنت مره دون» .

وقالت نرجس :

«هو فيه إيه يا عبد الرحيم؟»

«بنت الكلب عاوزة تورثنى بالحيا» .

«أهو طول النهار على كده يا عمّتى» .

وفتح عبد الرحيم عينيه وقال :

«لمى رجلك بعيد عن الميه يا نرجس» .

نرجس مالت ونظرت تحت قدمها المدلاة ، ورأت البلاط الجاف ، ولما سألته عن مكان هذه المياه قال :

«فى القناية» .

وهى استغربت وقالت فى سرها :

«قناية إيه يا أولاد؟ هو أحنا فى الغيط؟ ده أحنا فى المستشفى» .

وقال عبد الرحيم :

«أمك هانم عامله إيه يا نرجس؟»

«أمك حلوة» .

«والعيال؟» .

«يا خويا كلهم حلوين . خليك أنت فى نفسك» .

وقال عبد الرحيم : «يا سلام يا نرجس» . وأخبرها أن الولد عبد الله الصغير لو حفظ جدول الضرب : «يبقى عال» .

وقالت دلال :

«ما هو حافظه» .

«اتلهى» .

«والنبى حافظه» .

«والنبى ما حد خيّبه غيرك» .

«أنا؟»

قال :

«آه» .

وثقل برأسه على صدرها .

مات .

حاولت أن تجعله يجلس كما كان فى الأول ولكنها لم تقدر وتأكدت أنه مات .

وما إن صرخت حتى وقعت نرجس بين الحياة والموت .

واستيقظ المريض الذى يرقد على السرير المجاور ، ومال يتطلع إليهم بوجهه الشاحب وعينيه الغائرتين .

حاولت دلال أن تمسك نفسها تحت ثقل الجسد الذى كانت تحوطه بذراعيها دون أن تكف عن الصراخ ، الأمر الذى جعل عبد الرحيم يقوم من الموت ويقول غاضبًا :

«أنت بتصرخى فى ودنى كده ليه؟»

خرست دلال واختلط عليها الأمر ولم تعد ترى .

وجاءت الممرضة سلوى وقالت :

«مالك يا دلال ، بتصرخى ليه؟»

واعتدل عبد الرحيم على صوت الممرضة وقال :

«أنا عارف إيه اللى جرى لها؟»

انحنت الممرضة على نرجس وربتت على خدها :

«قومى يا حاجة . المريض بخير» .

وفتحت نرجس عينيها وهى نائمة على البلاط :

«اخص عليك يا عبد الرحيم» .

ومسحت عينيها بمنديلها الصغير .

وابتسمت .

محمد أفندى الرشيدى طلع على سطح البيت ونظر إلى عربة ابنه المركونة أمام الباب وأم حسين البقالة وهى مشغولة ببيع العيش.

محمد أفندى رفع دماغه بشعره الخفيف ولاحظ سطوح البيوت الخالية إلا من حبال الهدوم المنشورة، وقال إن أم حسين الحمارة ضيّقت السكة بهذه الأقفاص، وأية عربة تريد أن تمر من هنا لتذهب إلى السوق، لازم تقوم هى من مكانها وتسحب هذه الأقفاص لغاية عتبة الدكان. ومال برأسه أكثر ورأى فضل الله عثمان من أوله. وعندما وجده خاليًا ولا توجد أية عربة قادمة أحس بالضيق وغادر مكانه ووقف أمام الصبّارة المتربة فى ركن السطح. رأى طينها الذى جف وتشقق داخل آنية الفخار المدورة، وفكر أن يذهب إلى الحمام ويملأ كوب الماء الكبير من الحنفيّة ويرويها.

راح ينزل السلم على مهله دون أن يلتفت إلى باب شقته المفتوح، وعندما وصل إلى الدور الأرضى، وقف أمام الباب الموارب، ومد إصبعه ونقر على باب الشراعة المقفل.

«ادخل ياللى بتخبط».

محمد أفندى وضع كفه على خشب الباب.

دفعه بهدوء وهو يستمع إلى صريره البطىء، ولبث واقفًا حتى تعودت عيناه عتمة المكان، ورأى الست أم عبد الله التى تجلس فى ركن الصالة.

تقدم وقعد على طرف الكنبة القريب وهو يلم حجر جلبابه ويقول:

«صباح الخير يا ست أم عبده».

«أهلا يا سى محمد. أهلاً وسهلاً».

ونظرت نرجس بعينيها الدقيقتين إلى سلسلة الساعة المعدنية وهي مثبتة بعروة الزرار ومدلاة على صدره، وقالت إن أحدًا من الأولاد ليس هنا:

«كان عمل لك كباية شاى».

«مفيش لزوم. هم كلمتين، ورد غطاهم».

«خير».

محمد أفندى الرشيدى رفع وجهه إلى صورة البهى عثمان وهى فى البرواز المعلق على الجدار المطلى بالجير الأخضر الباهت، ثم نظر إلى قدميه فى شبشب أم حنان، وفكر أنها هى الصورة نفسها التى أخذها المرحوم فى استوديو عينر على البحر ولكنها مكبرة. وسألها أكانت عرفت أنهم اشتروا عربة فيات ١٢٨. ونرجس قالت: «أمال إيه». وأخبرته أن: «ده كلام له شهور». وأنها التقت أيامها بأم حنان فى المنور وهى تسقى الفراخ وقالت لها مبروك. «تانى يوم على طول».

محمد أفندى قال إنه سمع بهذا الكلام:

«لكن أنا زعلت قوى لما لقيت ابنك بيفضى الهواء من العجلة».

«ابنى؟»

«يوماتى على الله».

«وده مين فيهم يا ترى؟ عبدالله ولا سمير ولا سلامة؟»

«آهو أى واحد فيهم».

ولكن نرجس قالت كيف ذلك؟ إذا كان عبد الله الحكومة ماسكاه،

وسمير وسلامة لا يأتون إلا فى النادر ، والبنات كل واحدة عايشة فى بيتها مع زوجها وعيالها؟

«لكن بيزوروكى» .

«وافرض؟ دول رجاله يا أبو حنان» .

وأبو حنان قال إن عبدالله وسمير وسلامة أولادنا ، ولو كانت المسألة عبارة عن يوم أو يومين :

«كنت قلت وماله ، يلعبوا زى ما هم عايزين» .

ثم أوضح لها أن هذا شىء يطول أمره لأنها عربة ١٢٨ وموتورها بالعرض :

«الـ ١٢٨ كده» .

موتورها بالعرض . وهى عربة ملاّكى فعلاً ، وأى واحد يراها أمام الباب يقول إنها ملاّكى :

«لكن إحنا ناويين نقلبها تاكسى» .

ونعمل لها عمرة ، وهذا شىء يحتاج إلى مصاريف كبيرة ، قد تأخذ شهرًا ، أو سنة ، أو الله أعلم :

«وطبعًا عيب قوى يفضلوا طول المدة دى يفضوا العجلة ، واحنا ننفخها ، وهم يفضوها ، واحنا ننفخها» .

ونرجس نزلت عن الكنبة وهى تقول إن هذا الكلام لا يصح أبدًا وإنه زاد عن حدّه .

وأسرعت بمغادرة الصالة ووقف فى الحوش ورفعت رأسها بالمنديل الأسود وراحت تنادى :

«يا أم حنان. أنت يا أم حنان. . ».

وأبو حنان تركها تنادى وغادر الشقة ونزل الدرجات القليلة ووقف فى مدخل البيت عند مؤخرة العربة المركونة. وظل هكذا حتى سمع صوت الصفير المكتوم، وتقدم ورأى البنت الصغيرة التى تجلس بجلبابها الحريرى الأخضر عند العجلة الخلفية وفى يدها عود الكبريت الخشب.

كانت تحشره داخل البلف، والهواء المحبوس يندفع ويغلق عينيها ويطير شعرها الناعم، وراح يعبر الطريق متمهلاً، ويقف أمام أم حسين البقالة:

«صباح الخير يا ست أم حسين».

أم حسين أمسكت بالرغيف القريب وألقت به فى الناحية البعيدة من القفص المكشوف:

«أهلاً وسهلاً».

«البنت بنت حسين ابنك، يوماتى على الله، تفضى الكاوتش بتاع العربية».

«اضربها».

«لأ يا ست أم حسين، فيه ناس كبيرة لازم الواحد يرجع لهم، وبعد وفاة أبو حسين، بقيتى أنت الكبيرة بتاعة الدكّان».

«ولما أنا الكبيرة بتاعة الدكان، أسيب البيع والشرا، وأقوم أجرى ورا عيلة؟»

«طيب والحل يا ست أم حسين؟»

«ما أنا باقول لك مش عاجبك. لما تلاقيها بتعمل كده، امسكها اقطم رقبتها».

ثم صاحت:

«قومى يا بنت من عندك. أنا عارفة إيه اللى عاجبك فى المخروبه دى؟»

والبنت قامت تجرى وهى تضحك بصوت مسموع.

وأبو حنان قال إنها لو كانت مسألة يوم أو يومين كان تركها تلعب كما تريد، لكنها مسألة طويلة. الست أم عبدالله عندها فكرة كاملة عن الموضوع. والتفت إلى جامع السنية فى الناحية الأخرى من فضل الله عثمان:

«هو الضهر أذّن والاّ لسه؟»

وقالت أم حسين إنها لم تسمع:

«ما هى حاجة تقلب الدماغ».

استدار محمد أفندى الرشيدى ودخل البيت.

طلع السلالم القليلة ومد يده بهدوء ودفع الباب الموارب وهو يستمع إلى صريره البطىء، ورأى أم عبد الله وهى تجلس مكانها، وفكر أن يسألها أين كّبروا صورة المرحوم أبو عبد الله وكم كلّفت هى والبرواز، وراح يصعد السلم حتى وصل إلى السطوح.

كان حفيده الصغير قد رفع جلبابه عن بطنه المنفوخ ووقف يبول على الصبارة المزروعة:

«آه يا كلب».

وراح الولد يجرى ضاحكًا دون أن ينزل الجلباب أو يكف عن التبول.

ظل يتفرج عليه ويتابعه وهو ينزل السلم، ثم اتجه إلى سور السطح، ونظر مرة أخرى إلى فضل الله عثمان، ورأى العربة مركونة أمام الباب، وأم حسين البقالة وراء الأقفاص. ولمح البنت الصغيرة وهى تأتى من بعيد فتراجع على الفور وخبأ نفسه جيداً. فكر أن يتركها تطمئن وتلعب فى العجلة، ثم يذهب إلى الحمام ويملأ كوب الماء الكبير من الحنفية ويصّبه عليها من هنا. وتطلّع إلى الصبارة المتربة. ورأى آثار البول وقد تناثر على أوراقها وبين لونها النظيف الداكن. وقال إنها تجلس الآن على الأرض بجلبابها الأخضر، تدفع عود الكبريت فى بلف العجلة، والهواء يطير شعرها وتضحك. واقترب على أصابع قدميه حتى التصق بالسور، ومال بنفسه فجأة.

لكن محمد أفندى الرشيدى، لم يستطع أبدًا أن يراها.

نرجس استغربت كلام محمد الرشيدى عن أولادها وكاوتش العربية وقالت: «يا دى الخيبة على كده يا ولاد». وخطر على بالها الفرق بينه وبين والده المرحوم أحمد الرشيدى. ورأته رأى العين وهو يمر أمام باب الشقة أثناء طلوعه أو نزوله، وبطنه الكبير يرفع الجلباب ويجعله قصيراً من الأمام وطويلاً من الخلف، يمر وهو يصيح بصوته: «عواف يا ست أم عبدالله».

كان ناظر محطة قد الدنيا قبل خروجه على المعاش وكلمته واحدة. لم يكن يعيبه إلا عدم الصلاة التى أغضبت منه السنيّة فى الجامع وأرسلوا له الحاج محمود الفحام، وكلموا ابنه محمد والبهى لكى يضغطوا عليه، ثم فاتحوه بأنفسهم، وهو يقول إن شاء الله ولا يذهب. ظل بصحته وصحته يجيب آخر فضل الله عثمان، إلى أن قام أولاد الحرام الذين لا يعرفهم أحد بالاعتداء عليه، وبهدلوه، يا عينى، فى الشهر الكريم وساعة الإفطار، وهو قاعد مع أولاده على الطبلية. البيت كله سمع الصوت وهو ينادى مستغيثًا: «يا عم أحمد، يا عم أحمد يا رشيدى». والرجل قام من على الأكل واندفع يلبى النداء صائحًا: «جايلك». وفتح باب الشقة ليفاجأ بضربة من «بونيه» حديد هرست ذقنه وكسرت عدة أسنانه وخرمت أنفه وألقت به على ظهره غارقًا فى دمه وقاطع النفس يا ولداه، البيت كله جرى على السلم. لكن فضل الله عثمان كان خاليًا من الناحيتين لا يوجد به مخلوق يوحّد الله. ونرجس نظرت ناحية الباب الموارب وشعرت بالخوف وفكرت فى عيالها والبيت الذى خلا عليها. اثنا عشر ولدًا وبنتًا فقدت نصفهم وهم أطفال. ولأن الذين رحلوا لم يبرحوا قلبها فإنها تخلط بينهم وبين الأحياء. تلاحظ ذلك عندما تدعوها الظروف إلى الكلام على عيالها، فهى تعدهم على أصابعها بتمهل لكى تفرز الباقين من الغائبين. ترفع الإصبع وتقول: عبدالله، وترفع الثانى وتقول: إحسان، سلامة، سمير وهكذا. وقالت الله يرحمك يا سى البهى. وتذكرت يوم ذهبت لرؤية أمها، أقل من نصف ساعة شربت فيها الشاى ورجعت هى وعبدالرحيم لتجد أن ربنا افتكره وهو قاعد على الكنبة بالفانلة واللباس ولابس زنط المصلحة. كان رحيمًا بها وجعلها تذهب لزيارة أمها فى هذه اللحظة بالذات. ونرجس قالت فى نفسها يا ترى لو لم تذهب لرؤية أمها

كان البهى : «ح يموت برضه وهو قاعد على الكنبة بالفانلة واللباس؟ ولا وهو بيكلمها؟ ولا وهو نايم ولابس هدومه؟» واستغفرت ربنا . وتذكرت أنه طلب منها أن تحضر المنشار من عند عبد الرحيم ، وأن عبد الرحيم أحضره لما جاء معها ، وقالت : «يا ترى كان عاوز المنشار فى إيه؟»

ولما لم تعرف زاد أساها وقالت : «يا ريتنى سألتك يا سى البهى» .

وبكت وهى قاعدة وحدها .

قالت نرجس :

«مش بسيمة ماتت يا عبد الرحيم؟»

التفت عبد الرحيم صامتًا ، بعينيه المجهدتين .

كان النور مقطوعًا عن فضل الله عثمان ، واللمبة الجاز على التليفزيون فى الجانب الآخر من الصالة ، ضوؤها المحمر الخفيف يخايله الهواء ، ويحرك الظلال .

«والنبى ماتت» .

«مين قال لك؟»

«زينب . بنت على منصور» .

«يا ترى كانت عيانة؟»

«ما قالتش».

اعتدل عبد الرحيم قليلاً وهو يجلس على الكنبة، هزيلاً فى جلبابه الكتان، قدمه اليمنى تكاد تلامس ركبة شقيقته التى قعدت على الكليم المفروش فى ملتقى الكنبتين. البراد الأزرق على الوابور المشتعل، والصينية القيشانى، بإطارها المعدنى القديم، عليها عدة الشاى، وأعواد النعناع الذى ذبلت أوراقه.

«أم حنفى بعافيه شويه. رحت أطل عليها، لقيت زينب عندها. أنت عارفها والا لأ؟ بنت على منصور، صاحب البيت القديم؟»

«عارفها. مش بنته الصغيرة؟»

«صغيرة؟ دى بقيت ناظرة مدرسة».

قالتها نرجس وهى تحدق عبر باب الشقة المفتوح إلى حوش البيت المظلم، وقد أرهفت أذنيها وأطبقت فمها الخالى من الأسنان. فعلت ذلك حتى انتفض غطاء البراد من غليان الماء، فانشغلت بصب الشاى، وانتبه عبد الرحيم لرنين الملعقة فى زجاج الأكواب:

«صعبت عليه المنيلة. فضلت الدموع تسح من عينيه طول ما أنا قاعدة، أنا دور وأم حنفى دور، لما عمينا».

وجففت عينيها بطرف جلبابها الأسود، وتنهدت:

«يا الله.. ربنا بغفر لعبيده».

عبد الرحيم فهم المعنى الذى قصدته نرجس. وفكّر أن يقول، كما قال قبل سنوات طويلة، إن مشيها لم يكن سيئا كما كان يشاع. فكر أن يبوح

لها الآن، للمرة الأولى، بأن بسيمة هى التى رفضت أن تتزوجه، وأنه كان مستعداً لعمل أى شىء، حتى بيع الأرض، من أجلها. أراد عبد الرحيم أن يسمع نرجس هذا الكلام، لكنه قال، بينه وبين نفسه: «يا واد لا تقول ولا تعمل. مابقاش يجى منه» وانقطع وشيش الوابور فجأة عندما أطفأت نرجس شعلته، واختفت ملامح وجهها لما زادت العتمة، وبدأت تعود. ورفع كوب الشاى، وشم رائحة النعناع.

سبحان الله.

عشرون عامًا الآن؟

خمسة وعشرون؟ ثلاثون؟

كان يصعد خلسة إلى حجرتها الوحيدة على سطح البيت.

الدولاب فى مواجهة الباب، والفراش فى الناحية اليمنى، وفى الجانب الآخر، تحت النافذة العالية المفتوحة (يرى السماء من خلالها حين ينام على الفراش)، كانت تضع تسريحة بمرآة بيضاوية، صغيرة ولامعة. وكان عندها إصبع روج وعلبة كريم ومشط، وزجاجة عطر، وبودرة وكحل بلدى. وكان عندها فستانان، واحد أصفر بزهور حمراء، خفيف وله حزام، وواحد صوف من قطعتين، وعدد كبير من الكيلوتات الحرير وقمصان النوم العريانة. تحط أحمر وأبيض، وتكحل عينيها. تطلع وتنزل، وتقعد طول النهار مع السكان وتهزر، بجسدها الجميل الأبيض، واستدارة كتفيها الناعمتين. ظلت تفعل ذلك رغم كل الكلام حتى أطلقوا عليها «بسيمة الموضة»، واتهموها بالمشى البطال. يتذكرها عبد الرحيم وهما وحدهما فى الحجرة، قبل أن يسبقها إلى محطة الترام لكى يذهبا إلى

سينما «أولمبى» على مقربة من بوستة العتبة حيث يعمل. هو عند الباب، وهى هناك، تفتح دولابها وتقف طويلاً، رأسها بشعرها الكثيف المقصوص مائل إلى ناحية. يدها اليمنى فى خصرها، واليسرى مرتفعة تمسك ضلفة الدولاب التى لا تفتحها كلها، تتأمل ثيابها القليلة، بألوانها الزاهية.

يستعجلها دون فائدة. فهى تراها أولاً على بعضها بعضًا. ثم تتوقف عيناها عند كل واحدة على حدة. تعيد وضع هذه، وتلمس تلك القطع التى رتبتها بعناية على الرفوف شبه الخالية، بعد أن أعطته ثياب زوجها الأول.

كان ينصرف وهى ما زالت فى وقفتها، فرحانة بهدومها وحائرة. وعندما تلحقه، وقد ارتدت فستانًا من الاثنين، كانت تبدو فى زينتها مثل عروسة، ملونة ومعطرة.

وتضحك.

أحيانًا كانت زينتها تحرجه.

وساعات كان كلامها بالصوت العالى يخجله.

يذكر ملامحها الغاضبة، ودهشتها: «أنت بتنكسف منى يا عبدالرحيم؟».

وبكت.

ظلت طول الطريق تبكى أمام الناس ولا تبالى.

رفضت أن تسامحه، أو تركب الترام.

وفى الصباح، صالحته.

بدأت تعامله كأى واحد من السكان.

تبتسم له، وتسلم عليه.

لم تخرج معه بعد ذلك أبدًا.

عبد الرحيم أخذ رشفة أخيرة من الكوب.

ومد يده إليها.

هى حدقت فى صمت، وهو ابتسم فى النور الخفيف...

ولمح أوراق النعناع مائلة، على كمية من ثفل الشاى المبلول.

كانت نرجس تفكر، وهى قاعدة مكانها فى ملتقى الكنبتين، أن أول شيء سوف تفعله، «لما يفرجها ربنا»، أن تشترى طبق قيشانى واسعًا للأرز، وسلطانية شربة كبيرة، بدلاً من تلك التى كانت عندها أيام زمان، وانكسرت.

كانت نرجس تفكر فى ذلك وتستغرب، لأنها باعت ذهبها كله، البندقى عيار الأربعة والعشرين، كردان أمها هانم، المشغول أبو دلايات، وخلخال ستها عزيزة، وشبكة البهى عثمان، الغوايش، والحلق المخرطة الثقيل. وباعت نحاسها الأحمر، الحلل، والمصفى، والإبريق القديم، وطشت الحموم والغسيل، والمغرفة.. باعته مع قسوة الأيام.. حتى

طقمها الصينى الجميل، لم يبق منه إلا صينية الشاى، تهشم قطعة وراء الأخرى. . الصحون الواسعة والضيقة، فناجين الشاى والقهوة، وأطباقها الصغيرة المرسومة، واللبّانة، والسكرية، والملاّحة الصغيرة. . نرجس تفكر فى ذلك وتستغرب، لأنها لا تشعر برغبة فى تعويض شىء من ذلك كله، هى تحمد ربنا على أن هذه الأشياء كانت عندها فى الأوقات الصعبة، وأن ثمنها سترهم بين الناس. ولكنها تمنت طول الوقت، أن تعوض طبق الأرز القيشانى الطويل، وسلطانية الشربة الكبيرة، بوردها الخفيف، وغطائها الذى تعلوه الكرة الذهبية المدورة.

أشياء كثيرة ضاعت وهى قاعدة مكانها فى ملتقى الكنبتين.

ذكراها تعاودها، مثلما تعاودها ذكرى الناس.

سريرها العالى الذى انتهى به الحال مفكوكة أعمدته الطويلة، وشبابيكه المزخرفة السوداء، بحوافها المحلاّة بكرات النحاس الصغيرة الصفراء، التى كان الولد عبدالله يفكها وهو صغير، يسد خرمها، ويلعب بها البلى مع الأولاد.

ظلت الأعمدة والشبابيك، وخشب الملة الزان، مركونة فى حوش البيت وراء السلم. واحتل مكانها سرير منخفض بشبابيك صاج مسدودة، عريض وله سوستة. لا تعرف نرجس لماذا رضيت بذلك، ولا كيف تركت سريرها القديم مركونًا، يمر الصيف عليه وينزل المطر، ويتغير حاله ويضيع، قطعة وراء الأخرى. لم يبق منه إلا عروسة واحدة من أربع عرايس نحاس، كل عروسة تشبه الكوب المقفول، منقوشة ولها خصر، وفتحة ضيقة، لكى تركب فى نهايات الأعمدة، وتربط فيها أطراف الناموسية، بقماشها التول الخفيف.

كانت العرايس تظهر، على غفلة، وتختفى.

فى الأول، ضاعت واحدة، وضاعت الثانية، والثالثة.

وظلت الأخيرة موجودة حتى الآن.

تغيب، وتبين.

تعثر عليها فى بير السلم.

تغسلها وتجففها حتى تلمع، وتركنها فى مكان معلوم، وتختفى، سنة، أو اثنتين.

ثم تجدها فى يد أحد الأولاد، أو تتعثّر بها أثناء سيرها، أو ترفع داير السرير وتسحب شيئًا فتجدها وراءه. كانت تتركها مكانها بعيداً عن الأيدى، وتمر الأيام لتجدها قد اختفت. وتتعلم من التجربة. تسحب شيئًا وتجدها فلا تتركها مكانها، بل تحملها إلى مكان آخر، تحت الهدوم مثلاً، أو بين المراتب فى نهاية السرير، أو وراء كتب عبدالله قبل أن يحملها إلى بيته. وتمر الأيام وتنسى المكان، وتغادر نرجس مكانها. ينتهى النهار وهى قاعدة على الكليم. المنديل انحدر عن شعرها الذى شابه البياض، وتراكمت حولها الكراكيب التى كانت تحت السرير، وتحت الكنبات، وتحت الكرسى الكبير، والتى كانت فى المطبخ. وفى منضدة التليفزيون المقفلة، والدولاب، الهدوم المخزونة، والزنط الذى بحث عنه البهى وارتداه يوم رحيله، كانت مرمية كلها على الأرض، وعلى المساند المقلوبة، وهى تجلس هكذا وقد أغلقت فمها الخالى من الأسنان، وجف وجهها الملتهب، تتأمل العروسة، وتقلّبها فى حجرها، وتمسح الغبار عن نحاسها القديم المنقوش، وتفكر فى مكان تضعها فيه بحيث لا تغيب أبدًا عن عينيها.



٦

الدنيا ليل،

والعيادة فى دور أرضى من بيت بلا باب فى فضل الله عثمان. صالة كبيرة فيها مقاعد مختلفة الأحجام. والأرض خشب لون التراب لكن مكنوس. عبد الله قاعد على يمين المكتب الصغير، والتومرجى العجوز عند الستارة المدلاة على مدخل حجرة الكشف البعيدة، وهناك، صورة باهتة لامرأة ترضع طفلاً من صدر عريان، والنور خفيف، والجير واقع عن الجدران.

كان عبدالله فى انتظار الطبيب.

يحاول مرة بعد المرة أن يستعيد شيئًا مما بقى فى الذاكرة،

حين ترددت به أمه صبيًا على هذا المكان.

يذكر وجهًا شابًا، بشوشًا، ضاعت ملامحه،

يذكر شعرًا منكوشًا، أو خشنًا، مائلاً إلى الحمرة.

لابد أنه يتغير الآن.

كان يعرف أن لأمه ثقة كبيرة به، طبيب فضل الله عثمان القديم وأقربهم إلى البيت.

مع أنَّ أولادها، وأولاد أولادها، يترددون الآن على الطبيب الشاب فى العيادة المشتركة فوق الجامع، فإن سيرة المرض لا ترد أبدًا دون أن يذكر الدكتور رفعت بشكل أو بآخر.

«الدكتور رفعت عالجها وبقت زى الفل».

تقول.

«آهو الدكتور رفعت أول ما فتح، كانت تذكرته بخمسة صاغ».

«ما تبصش للعيادة المبهدلة اللى هو فيها،

بيقولوا لك عنده عيادة تانية، كبيرة فى باب اللوق،

كشفها غالى قوى».

«اسكت يا عبدالله يا ابنى،

امبارح وأنا داخله عند ستك هانم،

لمحت الدكتور رفعت وهو نازل من العربية، ما عرفتوش، السكر هده يا عينى».

وارتجفت الستارة قليلاً، وخرج الطبيب العجوز تتبعه امرأة شابة وهى تعدل من ثياب طفل تحمله.

جلس وراء المكتب الصغير المزدحم، وبدأ ينكش فى الورق، بينما راح عبدالله يحدق إلى الوجه الغريب الباسم. سمعه يقول:

«هو النهار ده إيه يا حاج شوقى؟»

«الخميس».

هكذا قال الحاج شوقى بصوت نحيل وهو يعد الحقيبة الصغيرة السوداء.

«أشوفه يوم الاتنين»، قال، وهو يمد يده بالتذكرة دون أن ينظر إليها: «معلقة أول ما تروحى البيت، ومعلقة الصبح. يعنى كل يوم معلقتين»، وعبث فى كوب ممتلئ بالملاعق، انتقى واحدة، رفعها أمام المرأة الشابة وقال:

«قد دى».

«حاضر».

ولاحظ عبدالله أنها وسط، بين الكبيرة وملاعق الشاى الصغيرة.

«مش حتلاقى معلقة قد دى، اديله مرة ونص من المعلقة اللى عندك، ورضعى الولد».

وبينما هى تخرج.

«لازم ترجّى القزازة قبل ما تديله الدوا. ماتنسيش».

«ربنا يخليك يا دكتور».

«مع السلامة».

والتفت إلى عبدالله باسمًا.

خرجوا إلى فضل الله عثمان.

مشوا فى نور اللمبات القليلة على واجهات المحلات المغلقة.

كان التومرجى يسبقهما والحقيبة مدلاة فى يده. وعندما وصلوا إلى

مدخل البيت المفتوح، سبقهما عبدالله إلى الداخل.

أثناء الكشف. مال على أمه وهمس:

«الدكتور رفعت يا امه».

لم يتلق جوابًا. كانت نرجس فى غيبوبة منذ أيام، وكان الطبيب قد أعاد مقياس ضغط الدم إلى التومرجى الذى راح يطويه ويعيده بعناية إلى الحقيبة المفتوحة على ركبتيه.

اتجه الطبيب إلى حافة الكنبة وجلس بين الأولاد والأحفاد الذين ازدحم بهم المكان..

سمعه يقول:

«بقى لها قد إيه وهى كده؟»

ارتفع صوت البنت نرجس الصغيرة وعيناها محمرتان من البكاء:

«النهار ده رابع يوم».

هز الطبيب رأسه وهو جالس تحت صورة البهى عثمان المعلقة على الجدار. وبينما هم يميلون نصفها الأعلى لكى يعدلوا ثيابها، قامت نرجس من غيبوبتها، وقد انحدر المنديل وتعرى رأسها الثقيل، وبان شعرها الخليط من فحم وفضة:

«فيه حاجة باينه من جسمى يا أولاد؟»

«أبدا يا امه».

وانحنت نرجس الصغيرة وجذبت الجلباب حتى قدمى جدتها.

«ابقى طل أنت بقى على أخواتك يا عبدالله».

وصرخت البنات :

«بعد الشر عنك يا امه».

كانوا يبكون، أو يربتون عليها، ويقبلون رأسها العارى وهم يريحون ظهرها إلى مسند الكنبة الذى تراكمت عليه علب الدواء، وفى تراجعها مدت يدها فى الفراغ كمن يتشبث بشىء، ومدت الابنة الكبرى إحسان يدها إلى يد أمها، والتقطت نرجس تلك اليد، جذبتها إلى فمها، وقبلتها.

قال الطبيب :

«بلاش كده. اللى يحبها صحيح، يدعى لها».

وفى فضل الله عثمان، أضاف :

«ربنا يسهل وتتحسن شوية، لأننا محتاجين نعمل لها شوية تحاليل فى المستشفى، وهى حاليًا مسكينة، لا تقدر تروح ولا تقدر تيجى».

وقال عبد الله :

«أنا شايفها تعبانة قوى يا دكتور».

هز الطبيب رأسه وهو يتابع التومرجى الذى كان يبتعد :

«تعبانة».

وحكَّ مقدمة حذائه فى أرض فضل الله عثمان :

«يعنى، ممكن تقعد، تتكلم، تضحك، لكن ترجع زى ما كانت؟ صعب».

ودون أن تفارقه تلك الابتسامة الحزينة، رفع وجهه، فى ضوء لمبة الحاج محمود الفحام، بشعره القصير الأبيض إلا من بقع ما زالت مائلة إلى الحمرة. وخيل إلى عبدالله وهو يعاود التحديق، أن شيئًا من ملامح الطبيب الشاب، البعيد، عبرت فجأة، لتخلى مكانها فوراً لذلك الوجه العجوز المتعب.

كأنه هو، وليس هو، راح يبتعد. . .

فى ليل الطريق.

كان فضل الله عثمان صامتًا ومهجوراً إلا منهم، ومن الأعمدة الخشبية الطويلة العارية، والحبال المجدولة، وأقمشة السرادق الثقيلة المطوية، وأقفاص الجريد التى امتلأت باللمبات الملمومة فى الأسلاك الكهربائية المجدولة، وأطباق البلاستيك المخرّمة.

تراجع عبدالله إلى الوراء، ونظر من مكانه، عبر شباك الصالة المفتوح، ورأى شراعة باب الحجرة الداخلية المظلمة حيث تقضى ليلتها الأخيرة فى الغد سوف ترحل، وتغيب إلى الأبد. غريبة.

كان يعرف أنها تخاف من العتمة، وقال:

«هى القوضة دى من غير لمبة؟»

«لمبتها محروقة من زمان».

هكذا قال شقيقه الصغير. وأضاف أنه كسل، لأن أمه لم تكن تدخلها.

قبل أيام، عندما نقلوها من مكانها فى ملتقى الكنبتين، من أجل زوارها، إلى الحجرة الداخلية، أخبرته شقيقته هانم أنها لم تدخل هذه الحجرة منذ مات أبوه. وفوجىء عبدالله لأنه قضى معهم سنوات بعد موت الأب دون أن يلحظ ذلك. كان يراها أثناء دخوله وخروجه وهى نائمة أو جالسة فى ركنها أمام التليفزيون أو مرفقها على المسند ويدها على خدها تتفرج من الشباك، يجلس معها، ثم يتركها إلى الحجرة الخارجية وهو يظنها تفعل ذلك أثناء القيلولة، أو السهر.

«يامّة، يامة الدكتور قال بلاش أكل الحادق».

«الله. طيب افرض يا عبدالله يا بنى، أن البنى آدم مات، يموت وهو نفسه فى الحاجة؟»

وها أنت تنتهين...

محرومة من كل حاجة كان نفسك فيها،

إلا الحادق.

«الأباجورة فيها لمبة».

هكذا قال سلامة.

عبدالله عبر فضل الله عثمان.

صعد الدرجات القليلة، ودخل من باب الشقة المفتوح.

كن منكفئات إلى جوار الجدران، والصغار ينامون على الكنبتين تحت الأغطية.

نزع اللمبة من الأباجورة المطفأة، واتجه إلى الحجرة الداخلية. فتحها، وسرعان ما استقر نور الصالة على طرف السرير. كانت الجدة هانم جالسة وراء أمه التى يغطيها المفرش الأخضر المنقوش، الذى أهدته لها زوجته فى عيد الأم. كانت تهمس، وتحادث ابنتها، دون أن تنتبه لوجوده.

سحب المقعد وبدل اللمبة. ولما ضغط الزر لم تعمل.

أعاد المقعد إلى مكانه، وترك الباب مواربًا،

لكى يسمح لضوء الصالة،

أن ينفذ إلى الداخل.

ظلت إحسان يقظة حتى ذهبوا إلى القرافة وعادوا.

كانت البنات قد انتهين من إعداد الصالة لاستقبال الحريم.

طلبت من دلال أن تأخذ أطفال العائلة إلى دارها، كما طلبت من حنان أن تتولى إعداد القهوة، واتخذت لنفسها مكانًا بجوار جدتها العجوز، وراحت ترحب بالجارات وحبيبات الأم الراحلة.

لم تكن الشمس قد دخلت من الشباك حين تجمعن بالهدوم السود على امتداد الجدران داخل الصالة وحتى الدرجات القليلة المفضية إلى فضل الله

عثمان، تاركات تحت الشباك خاليًا حيث تربعت المقرئة ذات الصوت الرجالى، والنظارة التى كشفت رغم سوادها عن بياض العين الوحيدة المفتوحة. وأمامها، كانت فردة شبشب نسائى نظيفة موضوعة تحت طرف القاعدة المستديرة الثقيلة، التى تحمل العمود القصير، وتجعل مكبر الصوت المعدنى يميل ناحيتها. وكانت هناك مطفأة زجاجية مغسولة، وصينية من القيشانى، مرسوم عليها غصن بورق أخضر، وورد بلدى خفيف.

ظلت الابنة الكبرى تحصى الوجوه التى بانت فجأة، الوجوه التى تعرفها من أهل فضل الله عثمان، والتى كانت من أهله وغادرت، وتتأمل الوجوه الأخرى التى لا تعرفها، وتتمنى لو كانت أمها نرجس موجودة الآن لترى ما فعله الزمن بأم فلانة أو أم فلان، وراحت تشم رائحة الخزين فى الهدوم التى أخرجت من قاع الدواليب حتى أحست بالدوخة. والتفتت إلى جدتها هانم التى ضاعت بحجمها الضئيل، وانسدلت طرحتها وهى منكفئة لا يظهر منها إلا طرف أنفها الدقيق فوق شاربها الخفيف. تتأخر كثيرًا قبل أن ترد على من ينتبه لها ويعزيها، أو تمد يدها بعيدًا عن اليد الممدودة، أو تضحك فجأة وهى تدارى ضحكتها فى عبها. ولكنها، إذا تكلمت، فإن صوتها فى كل الأحوال كان يسمع واضحًا ونقيًا.

وارتفع نحيب أم حنان فى منديلها وهى تهمس:

«يا حبيبتى يا نرجس. يا أم عبدالله».

ونزلت الدموع من عينى إحسان، تركتها تسيل على وجنتيها المحمرتين دون أن تجففهما، حين غادرت البنت نرجس فرشتها، وطلعت من باب الحجرة الموارب.

وقفت البنت مأخوذة وشبه نائمة فى حلقة السواد والنهنهة تلك .

ومثل ثمرة كبيرة نضجت توًا، اشرأبت، وطلع نهدها الناعم من حمالة قميصها المقطوعة، وتفتحت عن ظلها الكثيف فى ملتقى ساقيها الواضحتين، وبان انتفاخ عانتها، بينما خضبت حجرها بقعة طرية من الدم.

حدقت إحسان إلى ابنتها وهى تهم بالقيام. . .

همست :

«بنت يا نرجس» .

لكن البنت استدارت على نحو غريب .

استقبلت شعاع الشمس الذى جاء الآن من شباك الصالة المفتوح ،

وتجمعت فى شعرها المنكوش هالة من الزغب والنار ،

وانفرجت شفتاها الممتلئتان .

وابتعدت .

كانوا انتهوا من شرب الشاى ، وتحدثوا كثيرا ،

تذكروا ، وابتسموا .

«الله يرحمك يا امه» .

هكذا قالت إحسان بوجهها الحزين،

وعينيها المغسولتين من أثر البكاء.

كانت تعصب رأسها بالمنديل الأسود،

وتمسك كوب الشاى عند منضدة التليفزيون الذى غطوه بالفوطة الكبيرة الباهتة،

عندما انتبهوا لنقر خفيف على شراعة الباب.

كانت القادمة هى أم رزق، التى تذهب وتجىء طول النهار،

بقامتها النحيلة الضامرة، وملاءتها الململومة السوداء،

تطلعت داخل الصالة وهى واقفة فى فتحة الباب، وقالت:

«عواف يا جماعة».

«أهلاً وسهلاً».

«تعيشوا وتفتكروا».

«تعيشى».

همست وهى تضم أطراف الملاءة على وجهها:

«كنت عاوزاكى فى كلمتين يا أم نرجس».

ونزلت الدرجات القليلة المفضية إلى الشارع، ووقفت.

تبعتها إحسان:

«خير».

قالت أم رزق إنها تريد منها أن تعطيها شيئًا، من رائحة المرحومة.

«من عينيه، أجيب لك إيه؟»

«الشال القطيفة الأحمر».

«شال قطيفة أحمر؟»

«آهو يدفينى، ويفكرنى بيها».

وإحسان استغربت. وقالت إن أمها، الله يرحمها، لم يكن عندها شال أحمر.

أم رزق شكت فى الكلام.

وإحسان عادت وأقسمت لها أن أمها لم تلبس فى حياتها شيئا أحمر.

«أمال يا اختى، مين اللى كان بيلبس شال قطيفة أحمر؟»

«هنا فى البيت؟»

«متهيأ لى».

«ما اعرفش».

«تكون أم خليل اللى ساكنة فى أول الشارع؟»

«يمكن».

ضيّقت عينيها:

«هى أم خليل، مفيش غيرها».

حينئذ سألتها إن كانت تحب أن تأتيها بشىء آخر،

جلابية مثلاً .

وأم رزق اندهشت :

«يا مصيبتى ، جلابية؟»

ولمت الملاءة :

«كده برضه يا أم نرجس ، ده كلام تقوليه» .

واستدارت غاضبة ،

وانصرفت .

«أروح أطل على ستكم وأرجع» .

قال عبدالله وهو يرى وجه خاله الذى تهدم بدون طاقم الأسنان :

«أوصلك يا خال؟»

«خليك أنت عشان أخواتك» .

ومشى حتى آخر فضل الله عثمان ، وفتح الباب .

عبر الحجرة الكبيرة القريبة ، واتجه إلى نهاية الحوش المسقوف ، وتوقف عند زير الماء ، وأطل برأسه من الباب الصغير المفتوح .

كانت الجدة جالسة على الكليم القديم المفروش ، بجلبابها الأسود ، ووجهها الصغير يتجه بزاوية ناحية الصندوق الكبير المنقوش :

«عواف يا أمه» .

قالت دون أن ترمش :

«مين؟»

«أنا عبده» .

«تعال يا خويا» .

وقف صامتًا وهو يميل برأسه الكبير من فتحة الباب .

«أختك نرجس عامله إيه يا عبده؟»

«أبدا يامه» .

«أختك نرجس يا وله؟»

«الحمد لله» .

«الحكيم شافها؟»

«آه» .

«يعنى قامت ولا لسه؟»

«لسه» .

«وعيال أختك هناك؟»

«أيوه» .

«وعبدالله رجع داره» .

«كلهم هناك يامه» .

«سايبهم لوحدهم وجاى؟»

«أنا راجع لهم تانى» .

«هو المداس عندك؟»

«ليه؟»

«هات المداس يا وله خلينى أقوم أشوفها» .

«أما النهار يطلع أوديكى» .

«وقابلت عبد الرحمن؟»

«أول الشهر أسافر له» .

«وكلّمته عن الأرض؟»

«كلمته» .

«كلّمته إزاى يا وله وأنت لسه ما سافرتش؟»

«ما أنا كلمته قبل كده ولسه ح أكلمه تانى» .

«خد عبدالله معاك» .

فظلت شاخصة ناحية الصندوق الكبير المنقوش .

اعتدل فى وقفته :

«عاوزه حاجة؟»

«ترجعوا قبل الليل يا وله . سلم على أبوك عبد القادر ، وخالك عبدالعزيز . يالله . مع السلامة» .

عاد إلى الحجرة الكبيرة، وضغط زر الكهرباء، وأضيئت اللمبة المعلقة فى السلك المدلى من سقف الحجرة العالى، وجلس على الكنبة صامتًا.

تطلع إلى الجدران الجيرية الباهتة، وصورته المعلقة، شابًا فى سترة المصلحة، وإلى كراسى الطاقم الأسيوطى التى تباعدت وامتدت أياديها الخشبية العارية صوب السرير العريض واستقرت عيناه عند الملاءة المقطوعة. رفع رجله ولمها تحته، واستند بمرفقه إلى مسند الكنبة تحت شيش الشباك الطويل المقفل. وجاءته الترنيمة من عمق الدار:

«نادى المنادى وسمعته بودانى، من مات شقيقه ما يعوضوش تانى».

أراح رأسه على كفه وقد أعطى جنبه للمكان، وطفرت دموعه فى هدوء، ثم بدأ فكه يرتجف.

كان يجهش دون صوت، كأنما هو يمضغ البكاء....

داخل فمه الخالى من الأسنان.

فى الطريق إلى المستشفى،

قال سلامة إن أم حنان سبقت إلى سيدى عمر لكى يفتحوا المقبرة،

وإن أبو خالد لم يذهب إلى العمل، لكى يقوم بالغسل.

وتساءل الأستاذ:

«أبو خالد مين؟»

«جوز أختك».

«هو بيعرف يغسل؟»

«ممكن قوى».

«وإذا ما عرفش؟»

«الحاج محمود معاه».

«الحاج محمود مين؟»

«الفحام».

«هو بيعرف؟»

«أكيد».

ثم أضاف أنها ليست شغلانة، وأن أولاد خاله أولى بالمصاريف التى سيأخذها المغسّل الغريب.

وعندما وصلوا إلى المستشفى لحتهم دلال وابتدأت تولول ومعها عدد من نساء فضل الله عثمان.

وانضم الأستاذ إلى الرجال.

ومضت فترة.

وصاح صوت من عند العنبر الصغير:

«الأستاذ عبدالله».

تلفت حوله، وقال الصوت:

«اتفضل» .

قال سلامة وفى عينيه نظرة لوم واضحة :

«ما هو أنت الكبير» .

«يعنى إيه؟»

«يعنى لازم تحضر الغسل» .

واقتربت منه عجوز معصوبة الرأس ، أعطته لفة خفيفة :

«خد دى يا خويا معاك وأنت داخل» .

تناولها ، واتجه إلى هناك .

أطل الحاج محمود الفحام من الباب الموارب . سحبه إلى الداخل وهو يشد على يده مبتسما :

«إزيك يا عبدالله يا بنى؟»

ثم تجهم :

«البقية فى حياتك» .

كان يرتدى جلبابه البلدى الغامق ، وطاقيته الصوفية منحدرة إلى الوراء ، أما زوج شقيقته فقد كان يشمر ذيل جلبابه الخفيف وكمّيه ، ويقف وراء حوض عال من الأسمنت مكسو ببلاط السيراميك الأبيض ، وله حافة فى ارتفاع بلاطة واحدة . وكان خاله عبد الرحيم ينام على سطح هذا الحوض ، وأنفه مسدد إلى أعلى .

وقف عبدالله حائراً حتى مد زوج شقيقته يده وتناول اللفة وفضها .

كانت تحتوى على لوفة صفراء، وصابونة برائحة فى غلاف عليه وجه امرأة حسناء، وزجاجة كولونيا عارية.

قال الحاج بصوته الأجش:

«الليفة ناعمة؟»

ورد أبو خالد:

«تمام».

«ورينى».

وفركها فى كفه التى سود الفحم أظافرها، والتفت إلى عبد الله:

«لو خشنة ممكن تجرحه، لأن البنى آدم مننا طول ما الروح فيه ممكن يستحمل، لكن أول ما ربنا يفتكره، جلده يبقى رهيف، وأى شىء ممكن يؤثّر فيه».

وأعادها إلى أبى خالد الذى قال:

«إيدك معايا».

وتعاونوا على رفع عبد الرحيم حتى جعلوه يجلس فى مكانه.

كان الأستاذ يدفع ظهره من الخلف، وأبو خالد يسحب الجلباب من تحته، بينما رفع له الحاج محمود ذراعيه واحدة بعد الأخرى. وخلع له الفانلة القطنية. ولما صار نصفه الأعلى عاريا تماما أعادوه كما كان. كان عبدالله بن عثمان يتراجع مقاومًا ثقل الجسد العارى. وعندما لامست يداه سطح الحوض سحبهما قبل أن يستقر رأس خاله، فاصطدمت مؤخرته بالأسمنت صدمة خيفة ولكن صلبة. رمقه أبو خالد بنظرة لوم سريعة.

وارتجف الأستاذ وقال فى سره: «لا مؤاخذة يا خال». ولاحظ أن خاله ابتسم له، ابتسامة خفيفة غير مبالية.

جذب أبو خالد سروال عبد الرحيم البفتة، وفتح حنفية يتدلى منها خرطوم طويل من البلاستك الشفاف، وترك الماء يتدفق على رأس عبدالرحيم، وراح يدعكه بالصابونة. تطلع عبدالله إلى الماء والصابون وهو يجرى على وجه خاله دون أن تطرف عيناه نصف المغمضتين وبينما أبو خالد يعدله على جنبه تحركت يد عبد الرحيم وستر نفسه. وصاح الحاج:

«وحدوه».

ورد الأستاذ بصوت مخنوق:

«لا إله إلا الله».

وفجأة، قال الحاج:

«استنى يا أبو خالد».

توقفت يد أبى خالد عاليًا بينما ظل الماء يتدفق من الخرطوم على فم عبدالرحيم وأنفه.

ونقل الحاج عينيه بينهما:

«إحنا ناسيين حاجة مهمة جدًا».

وصمت لحظة، وأضاف:

«أى واحد غير طاهر لازم يخرج».

والتفت إلى عبدالله:

«لا مؤاخذة يا جماعة، إحنا فى حضرة ملائكة».

واعتدل:

«توكّل على الله».

بدأ أبو خالد يدعك الصدر والبطن والذراعين. وعندما انحدرت يد عبد الرحيم وعرى نفسه، قال الحاج:

«سيبه على راحته خالص».

وأبو خالد غطى عورته بفوطة صغيرة بيضاء ونظف تحتها، كما نظف الساقين حتى وصل إلى الأصابع ودعكها إصبعًا إصبعًا، وتراجع إلى الوراء، تأمل الجسد كله، وقال:

«تمام كده؟».

ابتسم الحاج:

«لأ».

«ليه؟»

«الطهر».

قال أبو خالد:

«مش الطهر بس، ده الطهر، وبعدين الوضوء»،

واتسعت ابتسامته:

«ما تخافش، أنا صاحى».

«بصراحة، أنت ماشى عال لغاية دلوقت».

وبدأ أبو خالد يرش عبد الرحيم بالماء وهو يضيّق من فتحة الخرطوم بطرف إصبعه، ويردد بصوت منغم:

«بسم الله ما شاء الله، لا إله إلا الله».

وصاح الحاج:

«وحدوه».

ورد الأستاذ:

«لا إله إلا الله».

وأبو خالد انتهى من تلاوة «قل هو الله أحد»، والحاج قام بلف رباط من الشاش أسفل الفكين وأعلى الرأس. وبدا عبد الرحيم فى نظر ابن أخته، كأنه يعانى التهاب اللوزتين.

وأتوا بالكفن ملفوفًا مثل السجادة الخفيفة.

ظلّ عبدالله يدفع الظهر بكلتا يديه حتى وضعوا الكفن وراءه، وقلبوه على جنبه الآخر، وسحبوا طرف اللفة من هناك، ورفعوا الفوطة الصغيرة عن عورته بعد أن ستروه بالقماش الجديد.

وتراجع عبدالله لكى يوسّع لهما.

كان القماش يزيد عن طول خاله بمقدار قدم عند الرأس، وأخرى عند القدمين.

قام زوج أخته بربطه من أعلى الرأس مباشرة، ومن أسفل القدمين، بينما تقدم الحاج وربطه من وسطه بقماشة نظيفة مثل الحزام، وفتح زجاجة

الكولونيا، وراح ينثر محتوياتها على عبد الرحيم وهو فى القماش المحكم.

وعبق المكان كله بخليط من رائحة الصابون المعطر والليمون، وقال الحاج:

«هاتوا الخشبة».

وفتح الباب.

وجد عبدالله بن عثمان نفسه يصيح فى الهواء الطلق:

«هاتوا الخشبة».

وتردد الصوت:

«هاتوا الخشبة».

كانت الشمس تسطع. والجو حاراً.

وجلس يسند ظهره إلى جدار العنبر الصغير.

ورآهم يتزاحمون تحت النعش فى طريقهم إلى العربة الطويلة السوداء، حيث دفعوا الصندوق إلى داخلها، وأغلقوا بابها الخلفى.

وسمع عويل نسائى قصير.

وراح كل واحد يسرع إلى ناحية.



٧

قامت دلال من نومها .

تناولت صحنًا معدنيًا نظيفا ،

وأخذت الولد عبدالله الصغير فى يدها ، واتجهت بصوتها ناحية الحجرة الجانبية البعيدة :

«صباح الخير يامه» .

وجاءها الرد من سقف الحوش :

«أنت صحيتى يا دلال؟» .

وبحثت دلال بعينيها عن العجوز دون أن تتبينها فى عتمة المكان ، وقالت :

«صحيت» .

«العيال راحوا المدرسة؟» .

«النهار ده الجمعة» .

«طيب يا أختى ادخلى» .

«أنا خارجة» .

«أنت خارجة يا دلال؟»

«لغاية الدكان. عبدالله جعان».

وصاح الولد:

«هانم».

«هو بيقول هانم؟»

«إيوه. قليل الأدب».

«هئ هئ هئ. أنت يا واد عارفنى؟»

«جرى إيه يامه. هو صغير؟»

اتجهت دلال إلى الباب. وقالت العجوز:

«أنت خرجت يا دلال؟»

«خارجة أهه».

«ما تتأخريش. عبد الرحيم زمانه جاى».

استدارت دلال، وفتحت الباب.

خرجت إلى فضل الله عثمان، ومرت على شباك عمتها نرجس المترب المقفول، ورفع الولد عبدالله وجهه وقال:

«عمتى نرجس ماتت».

جذبته من يده، قال:

«وعبد الرحيم مات، وهانم مش عارفة».

«يا واد اسكت» .

«دى مابتفهمش حاجة خالص» .

«يا نهارك أسود يا عبدالله ، أوعى يا واد تتكلم معاها فى حاجة زى دى» .

«مش عبد الرحيم وعمتى نرجس يبقوا ولادها؟»

«أيوه ولادها» .

«خلاص . أنا ماليش دعوة» .

اشترت الفول ، وأثناء العودة ، قالت :

«مش عبد الرحيم ، يبقى أبوك؟»

«ما أنا عارف» .

«يبقى مالكش دعوه إزاى؟»

«مش هو اللى راح المستشفى ، ومات؟»

«دى حاجة بتاعة ربنا» .

«هو كل حاجة بتاعة ربنا؟» .

دفعت دلال الباب ، وهبطت إلى الرطوبة والظل . وارتفع صوت العجوز مرة أخرى :

«ما تقفلش الباب يا عبد الرحيم . دلال برّه» .

«أيوه يا عمه» .

«أنت جيتى يا دلال؟»

«جيت» .

«عبد الرحيم معاكى؟»

انشغلت دلال بوضع قليل من الملح والزيت على الفول ، وتناولت رغيفًا من المقطف المعلق .

«أنت سامعانى يا دلال؟»

«سامعاكى» .

ردت دلال بصوت مخنوق .

وهالها وجه العجوز وهو يطفو مضيئًا بالخضرة ،

فى الجو المعتم وراء الزير ،

ويختفى .

مدت الجدة يدها إلى جوارها ، فأمسكت بمداسها القديم .

وضعته فى قدميها ، ومشت فى الطرقة الطويلة المنخفضة عن مستوى الأرض ،

توقفت عند الباب المفتوح ، وصعدت .

داهمتها شمس النهار .

جفلت .

غطت فمها بطرف طرحتها الخفيفة السوداء، ومدت قدمها إلى فضل الله عثمان.

بدأت تخطو لكى تذهب إلى نرجس فى بيتها القريب ناحية الشمال،

تحسست الورقة المطوية فى جيب جلبابها الجانبى،

فكرت أن تشترى شيئًا ولا تذهب بيد خالية،

اعترضتها جلبة إحدى عربات الكارو، فالتصقت بالجدار خائفة على نفسها،

واستدارت مع الحمار حتى مرت العربة وابتعد الخطر،

وواصلت مشيها، بعدما تغيّر اتجاهها،

دون أن تدرى.

«إيه الحكاية يا خال؟»

ويفتح عبد الرحيم عينيه وهو نائم، بصعوبة:

«أنا كويس»، ويبتسم:

«أنا مش حاموت، قبل ما آخد الأرض».

«طيّب شد حيلك».

تغيب ابتسامته.

«فاكر زمان يا خال،

لما سنّارتك اصطادت عصفورة؟»

«عصفورة؟»

وتَبينُ عليه الدهشة:

«أمك قالت لك، إن بسيمة الموضة، ماتت؟»

«آه».

وأغمض عينيه.

كيف كانت تعرف،

لترسل ضحكتها الفاجرة تهدر هكذا فى عز الصمت؟

تختار أوقاتًا يكون فيها الكرب قد سكن واحدة من حجرات البيت أو أكثر وتطلقها،

قارحة، تزرى بالمصائب، وتشحن الخلق،

بالهيجان والبهجة.

كيف كانت تعرف،

هى الوحيدة داخل حجرتها البعيدة العالية،

حيث السطوح الخالية،

ونجوم الليل،

والنيل؟

جلس الأستاذ طويلاً أعلى الشاطىء المنحدر.

كانت لحيته نابتة وبيضاء. وكانت صبية تقرفص على حافة الماء،

تفرغ مثانتها تحت جلبابها القطنى المشدود.

فى مقدمة الحوش المعتم المفروش،

المنخفض بمقدار درجة عميقة عن أرض الطريق،

وحيث اعتادت الجدة والخال أن يقضيا سهراتهما الطويلة،

جلس عبدالله بن عثمان وحيداً، يرى فضل الله عثمان من أسفل.

تحت عارضة الباب، تغيب شريحة من الأدوار العليا للبنايات القريبة،

ويصعد الغياب مائلاً حتى تتضح نهايات البيوت البعيدة،

وينفتح المكان على رقعة من سماء الليل، تنسدل،

ستارة صافية، ومعوجّة، لا تخلو من زرقة، ونجوم.

فضل الله عثمان من هنا،

مساحة طافية من الظل والنور.

اللمبات هالات محمرة متباعدة على المحال القليلة المقفولة،

فى قلب كل هالة، لم يكن فى وسع الأستاذ أن يمّيز شيئًا، ولكن فى أطرافها، حيث يخفّ النور.

أو تشفّ العتمة،

كان يميز أحيانًا ضلفة شباك، أو بابًا،

أو مسحةً من جدار.

والجدة هانم ما زالت تمشى.

تبحث عن بيت ابنتها نرجس ناحية يدها الشمال، وشباكها الأخضر المفتوح.

تدور مع الأزقة، وتغيب فى الحارات.

تفتش فى وجوه الناس.

تلج البيوت المفتوحة وتغادرها.

وتدخل الدكاكين على أصحابها، تتفرج،

وتلمس فترينات العرض الزجاجية بأصابعها الدقيقة الجافة، وتضحك فى عبها.

وتدارى اخضرار وجهها الغريب فى طرحتها الحريرية السوداء.

إذا داهمها الليل تحتمى بالماء. تنام جالسة بجرمها الصغير تحت شجيرات الخروع بأوراقها العريضة المائلة على حافة النهر الساكن، تغفو، وتقوم على ارتجافة الفجر الفضى عبر الكوبرى الحديدى القاتم. تبلل وجهها، وتمضغ قبضة من الأعشاب الرطبة وتحبو. تطلع أعلى الشاطىء المنحدر، وتقف هناك تحت الكافورة الكبيرة العالية.

الجدة هانم تنظف ثوبها من قش المكان.

وترهف أذنيها صوب موكب عربات الكارو القادمة من سكة القناطر وهى تقترب، محملة بالخضر الطازجة. تتابع خبب الخيل التى يقودها الرجال النائمون فى ضباب الصباح. تسمع رنين الأجراس النحيلة وهى تتأرجح. تشيّعها وهى تخبو وتغيب، واحدة تلو الأخرى عند انحناءة النهر،

وتنادى،

علّ أحداً يسمعها:

«مش رايح البلد يا بنى؟»

الوراق، صيف ١٩٩٨


Twitter: @alqareah

رقم الإيداع ٢٠٢٢١ / ٢٠٠٤
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 09 - 1167 - 4

مطابع الشروق
القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس: ٨١٧٧٦٥(٠١)

كيف كانت تعرف،
لترسل ضحكتها الفاجرة تهدر هكذا فى عز الصمت؟
تختار أوقاتاً يكون فيها الكرب قد سكن واحدة من
حجرات البيت أو أكثر، وتطلقها، قارحة، لتزرى
بالمصائب، وتشحن الخلق،
بالهيجان والبهجة.
كيف كانت تعرف؟
هى الوحيدة داخل حجرتها البعيدة العالية،
حيث السطوح الخالية،
ونجوم الليل،
والنيل.

دار الشروق

